(إن) و(إذا) و(لمّا)
في
سياقات الابتلاء بالخير والشر في القرآن الكريم

د. رباب صالح جمال

أستاذ مساعد – قسم البلاغة والنقد

جامعة أم القرى

ملخص البحث

يتـــناول هذا البحث من أدوات الربط (إن) و (إذا) و (لما) في وصف معاني ابتلاء الله لعـــباده بالخير و الشر ، و موقف العباد من ذلك الابتلاء . و قد قام البحث برصد مواطن الالتقاء و الاختلاف بين دلالات هذه الأدوات من خلال السياقات التي ورد فيها كل منها .

و تـــبين أن الآيات موضع البحث تنقسم ثلاثة أقسام بحسب مواقف المبتلين ، ورد القرآن عليهم ، و هي ما كان يصف حال الإنسان من الابتلاء بالخير و الشر عامة دون تخصيص موضع كل مـــنهما ، و مـــا كان يصف حال الإنسان حين تعقب إحدى الحالين الأخرى ، و ما كان يصف حال الإنسان عند تخلصه من الشدائد .

و يخـــتلف موقف الإنسان في كل حال عن الخرى ، و من ثم يختلف رد القرآن عليه ، ففي الحـــال الأولى يكـــون فرحا حال النعمة ، يائسا حال النقمة ، و يكون رد القرآن عليه لفتا إلى آيات

القدرة الإلهية ، و دعوة للاستبصار في ملكوت الله في محاولة لإثبات التوحيد الخالص و إقناع المشركين بـــه . و في الحال الثانية يتعدى الفرح و البطر إلى الجرأة على الله بالكفر ، و يكون الرد تلويحا بوقوع العقـــوبة على هذا الكفر و النكران . و في الثالثة ينكسر المرء انكسارا شديدا حال الشدة ، ثم يعقبه بإتيان جرم الشرك العظيم ، فتصرح الآيات بذكر عقابه حينا ، و تصرح بتهديده به حينا آخر .

و قـــد وضـــح مجمـــل الآيات سبق رحمة الله غضبه ، و تفضله على عباده ، مع جحودهم ونكـــرانهم لفضله على تفاوت في هذا الجحود ، فجاء أغلب آيات مس السوء و الضر باستعمال أداة الـــشرط (إن) التي تفيد ندرة وقوع الشرط ، في حين جاء أغلب آيات مس الخير و مجيء الحسنات باســـتعمال (إذا) الـــتي تفيد تحقق وقوع الشرط . كما جاءت أغلب آيات القسم الثاني تعقب فيها الرحمة الضر إلا موطن واحد أعقب فيها الضر الرحمة .

مقدمـــــة

بـــسم الله الـــرحمن ذي الفـــضل و الكرم ، و الحمد لله مجزل العطاء بالنعم ، ومهـــذب الأنام بالنقم ، و الصلاة و السلام على من أرسله نذيرا و بشيرا للأمم وعلى آله وصحبه وكل من اقتدى بهم و ائتم .

استوقفني و أنا أقرأ كتاب الله تعالى موقف الإنسان تجاه ابتلاء الله تعالى له بالخير و الشر ، و لفتني مجيء الإخبار عن هذا الابتلاء ، و عن موقف الإنسان منه بعدة أدوات ذات دلالات مخـــتلفة ، و إن كانـــت مـــتقاربة ، وهـــي (إن) و (إذا) و (لما) . وبالـــرجوع إلى كتب النحو و التفسير وجدت النحويين و المفسرين و البلاغيين أشاروا إلى تقـــارب(إن) و(إذا) و اختلافهما في بعض الدلالات ، كما أشاروا إلى استعمال أحدهما مكان الآخر بحسب مقتضيات السياق ، و لكنهم لم يربطوا بينهما و بين (لما) ، و لم يقارنوا بين دلالتها و دلالتهما ، مع إشارتهم إلى أنها تحمل معنى الشرط . و مجيؤها في سياقات الابتلاء بالضر يوضح علاقتها أكثر بهما .

وقـــد جمعـــت الآيات التي تذكر موقف الإنسان من ابتلاءات الله له فوجدتها

تنقسم ثلاثة أقسام بحسب موقف الإنسان منها ، و رد القرآن عليه، فقسم يذكر موقفه حـــالي الابـــتلاء بـــالخير و الشر عامة ، و قسم يذكر موقفه حال تعقيب إحدى الحالين بالأخرى ، و قسم يذكر موقفه حال تخليص الله له من شدة وقع فيها ، فقسمت البحث ثلاثـــة أقسام . ثم رأيت فروقا في صيغ أفعال الشرط التي وصفت الابتلاء ، و فروقا في صـــيغ جـــواب الشرط التي وصفت موقف الإنسان منها ، فبينت ما اتضح لي منها ، وأشـــرت إلى نقاط الاتفاق و الاختلاف في الأخرى لعل من العلماء من يضيء لنا فيها قبسا من العلم و الفهم للحكم المستترة وراءها .

وقـــد تطلـــب البحث الرجوع إلى كتب النحو و اللغة و البلاغة و التفسير ، خاصة ما اهتم منها ببيان الفروق بين هذه الأدوات (إن) و (إذا) و (لما) و الفروق بين صيغها .

و على هذا تكون البحـــث من مقدمة، و تمهيد في معـــــاني (إن) و (إذا) و (لمـــا)، ثم آيـــات القسم الأول ، ثم القسم الثاني ، ثم القسم الثالث ، ثم بيان ما بين هيئات المعنى من فروق ، ثم ختمت البحث ببيان لأهم ما توصل إليه البحث .

(إن) و (إذا) و (لّما) في كلام النحاة :

* ذكر ســـيبويه (ت ١٨٠ هــ) أنّ (إنْ) أم الجزاء[١] ، وأشار الزمخشري (ت ٥٣٨ هــ) إلى أنها لا تستعمل " إلا في المعاني المحتملة المشكوك في كونها ...

(١) انظر سيبويه : كتاب سيبويه ج١ ص١٣٤ ، ج٣ ص٥٦ ، ٦٣ ، ١١٢ ، ج٤ ص٢٢٠ ، وانظر علي بـــن عيـــسى الـــرماني : كتاب معاني الحروف ص٧٤ ، أحمد بن فارس : الصاحبي في فقه اللغة العربية ومـــسائلها وسنن العرب في كلامها ص١٣٤ ، جمال الدين بن هشام الأنصاري : أوضح المسالك إلى ألفـــية ابن مالك ج٤ ص١٨٥ وما بعدها ، ابن عقيل : المساعد ج٣ ص١٣٣ ، مغني اللبيب ص٣٣ ، السيوطي : همع الهوامع ج ٢ ص ٥٧

وتقول : إن مات فلان كان كذا وإن كان موته لا شبهة فيه إلا أن وقته غير معلوم فهو الذي حَسُن فيه "[٢] فالأصل فيها أن تستعمل في المشكوك ، وإنما حَسُنت في دخولها على الموت – مع أنه متيقن الوقوع – لأن زمانه مبهم فأشبه المشكوك . وقد تدخل على المستحيل نحو﴿إن كان للرحمن ولد ﴾ {الزخرف ٨١ }[٣].

وهي في هذا – كما سيأتي – تخالف إذا . و من أحكام (إنْ) " أنها للاستقبال وأنها تخلص الفعل له إن كان ماضياً " [٤] .

* وذكـر سـيبويـه أنّ (إذا) لما " يستقبل من الدهـر وفيها مجازاة وهي ظـرف "[٥] ، وقال أيضاً : " فإذا فيما تَستقبل بمنزلة إذا فيما مضى ، ويبين هذا أن إذا تجـيء وقتاً معلوماً ، ألا ترى أنك لو قلت آتيك إذا احمّر البُسر كان حسناً ، ولو قلت آتيك إن احمّر البسر كان قبيحاً . فـ (إن) أبداً مبهمة ، وكذلك حروف الجزاء . وإذا توصل بالفعـل ، فالفعـل في إذا بمنـزلته في حين كأنك قلت : الحين الذي تأتيني فيه آتيك فيه " [٦]

ولعل هذا الفهم لدلالة (إذا) هو الذي جعل النحويين والبلاغيين يستخلصون

---

(٢)محمـود الزمخـشري : المفصل في علم العربية ص٣٢٢ ، وانظر ابن عقيل : المساعد ح١ ص٢٠٥ ، بدر الدين الزركشي : ج٤ ص٢١٥ ، السيوطي : همع الهوامع ج١ ص٢٠٦ ، الإتقان ج ١ ص١٤٩

(٣) انظر الزركشي : البرهان ج٤ ص٢١٥ ، السيوطي : همع الهوامع ج١ ص٢٠٦

(٤) الزركشي : البرهان ج٤ ص٢١٥

(٥) سيبويه : ج٤ ص٢٣٢ ، وانظر ابن فارس : الصاحبي ص١٤٣ ، الزمخشري : المفصل ص١٧٠، ١٧١ ، ابـن هشام : مغني اللبيب ص١٢٧ ، ابن عقيل : المساعد ج١ ص٥٠٥ ، الزركشي ج٤ ص١٩٧ ، السيوطي : همع الهوامع ج١ ص٢٠٦

(٦) سيبويه : كتاب سيبويه ج٣ ص٦٠

قاعدة تغلب على دلالة (إذا) وهي أنها للأمر المحقق الوقوع أو الراجح يقول السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) موضحا الفرق : " و أما إن فهي للشرط في الاستقبال ، و الأصل فيها الخلو عن الجزم بوقوع الشرط ... و إذا للشرط في الاستقبال ... و الأصل فيها القطع بوقوع الشرط ... و هو النكتة في تغليب لفظ الماضي معه على المستقبل في الاستعمال ، لكون الماضي أقرب إلى القطع من المستقبل في الجملة نظرا إلى اللفظ " (٧) ، و يقول ابن عقيل(ت ٧٦٩ هـ) : " إذا للوقت المستقبل ... لكنها لما تُيقّن كونه أو رُجّح – مع كونها للشرط الذي من حق أدواته الدخول على خلاف ذلك ، فالمتيقن وجوده نحو: آتيك إذا احمرّ البسر والراجح نحو : آتيك إذا دعوتني (بخلاف إن) فإنها للممكن ، فلا تقول : آتيك إن احمرّ البسر . وقد تدخل إذا على ما هو لإن وهو الممكن ، أي غير المتيقن أو الراجح كونه كقوله :

إذا أنت لم تنــزع عن الجهل والخنا

أصبت حليماً أو أصــابك جــاهل

وتـدخل إن علـى المتـيقـن كونـه إذا أبهم زمانه نحو﴿ أفإن متّ فهم الخالدون ﴾ " (٨)

وذكر ابن عقيل معنى العموم فيها مشيرا إلى أن هذا قول ابن عصفور ، فقال : " وإذا قلت إذا جاء زيد جاء عمرو هل يقتضي تكراراً فتكون مثل كلما أو لا ؛ المشهور أنهـا لا تقتضيه قال ابن عصفور : وهو الصحيح فالمراد بها العموم كسائر أسماء الشرط ويدل عليه

---

(٧) أبو يعقوب يوسف السكاكي : مفتاح العلوم ص ٢٤٠ – ٢٤١

(٨) ابن عقيل : المساعد ج١ ص٥٠٥ ، ٥٠٦

إذا وجدت أوار الحب في كبـــــدي أقبلت نحو سقاء القـــوم أبتـــرد

فـــالمعنى في البـــيت على العموم كأنه قال : متى وجدت "[٩] ، وهو ما ذكره الزركشي (ت ٧٩٤ هــ) من أحكامها ، يقول : " فإذا قلت : إذا قام زيد قام عمرو أفادت أنه كلما قام زيد قام عمرو "[١٠]

وقد خالف السيوطي (ت ٩١١ هــ) الزركشي في ذلك ، و رأى أن الــصحيح أنهـــا لا تدل على العموم[١١] ، و لكن المتبادر من دلالتها هو العموم و ليس حصر الشرط على الوقوع مرة واحدة ، و إنما يفهم منها أن قيام عمرو متوقف على قيام زيد و متكرر مع تكرره .

وذكر الزركشي جملة من أحكامها منها:أن" أصل (إذا) الظرفية لما يُستقبل من الزمان كما أن (إذ) لما مضى منه ، ثم يتوسع فيها فتستعمل في الفعل المستمر في الأحوال كلها : الحاضرة والماضية والمستقبلة ، فهي في ذلك شقيقة الفعل المستقبل الذي هو يفعل به نحو ذلك قالوا: فلان يعطي الراغب وينصر المستغيث من غير قصد إلى تخصيص وقت دون وقت قاله الزمخشري في كشافه القديم "[١٢] . فقوله : إنها تستعمل في الفعل المستمر الذي يشير إلى عدم تخصيصها بوقت ، وقوله في موضع آخر "وتستعمل أيضا للاستمرار كقوله : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ {البقرة ١٤} فهذا فيما مضى لكن دخلت إذا لتدل على أن هذا شأنهم أبدا ومستمر"[١٣] ؛ هذان القولان يدلان

(٩) ابن عقيل : المساعد ج٣ ص١٥٥ ، ١٥٦

(١٠) الزركشي : ج٤ ص٢٠٣

(١١) انظرالسيوطي : همع الهوامع ج١ ص٢٠٦

(١٢) الزركشي : البرهان ج٤ ص١٩٧ ، وانظر السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ج ١ ص١٤٩

(١٣) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ج٤ ص١٩٤ ، وانظر السيوطي : الإتقان ج ١ص١٤٩

على استغراقها لكل الأزمان مما يشير إلى الدوام أو شيء قريب منه .

ثم ذكر جملة من الأحكام التي تخالف فيها (إن) (إذا) فقال : " وأما الأحكام التي تخالفها ففي مواضع : الأولى لا تدخل إلا على مشكوك ... وأما (إذا) فظاهر كلام النحاة يشعر بأنها لا تدخل إلا على المتيقن وما في معناه "(١٤) ثم قال عن (إذا) " قال ابن الجويني : الذي أظنه أنه يجوز دخولها على المتيقن والمشكوك لأنها ظرف وشرط ، فبالنظر إلى الشرط تدخل على المشكوك كـ (إن) وبالنظر إلى الظرف تدخل على المتيقن كسائر الظروف . وإنما اشترط فيما تدخل عليه (إن) أن يكون مشكوكاً فيه ، لأنها تفيد الحث على الفعل المشروط لاستحقاق الجزاء ويمتنع فيه لامتناع الجزاء ، وإنما يحث على فعل ما يجوز ألا يقع ، أما ما لابد من وقوعه فلا يحث عليه ، وإنما امتنع دخول(إذا) على المشكوك إذا لحظت فيها الظرفية ، لأن المعنى حينئذ التزام الجزاء في زمان وجود الشرط . ولما كان الفعل بعد (إذا)(١٥) مجزوما به يستعمل فيه ما ينبيء عن تحققه فيغلب لفظ الماضي كقوله تعالى: ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة﴾"(١٦). وهو هنا يشير إلى وجه دلالة (إن) على المشكوك ، فهي بتعليقها استحقاق الجزاء بوقوع الشرط تفيد أنه لم يقع و قد لا يقع ، كما يشير إلى وجه دلالة (إذا) على المتحقق لوجود معنى الظرفية فيها ، تلك التي تعني لزوم وقوع الجزاء في زمن وقوع الشرط، و من هنا كثر مجيء الفعل بعدها ماضيا .

و من أحكامها ما نقله الزركشي عن ابن الزبير من أن جواب الشرط فيها

---

(١٤) الزركشي : البرهان ج٤ ص١٩٩ ، ٢٠٠ ، وانظر السيوطي : همع الهوامع ج١ ص٢٠٦ ، الإتقان ج ١ص١٤٩

(١٥) في الكتاب (إن) و الحديث عن إذا فلعل هناك خطأ مطبعي أو تحريف في النص الأصلي .

(١٦) الزركشي : البرهان ج٤ ص٢٠١ ، وانظر السيوطي : الإتقان ج ١ ص١٤٩

يعقب فعل الشرط على الاتصال ، ولا يتأخر عنه [١٧] .

* وأما (لّما) فقد أشار سيبويه إلى معنى الشرط فيها حين ذكر أنها (للأمر الذي وقع لوقوع غيره وإنما تجيء بمنزلة (لو)...فإنما هما لابتداء وجواب)[١٨] وإلى ذلك أشــار ابــن هــشام(ت٧٦١ هــ) حين قال عنها إنها " تختص بالماضي فتقتضي جملتين وُجــدت ثانيتهما عند وجود أولاهما نحو : لما جاءني أكرمته . ويقال فيها : حرف وجود لوجود ، وبعضهم يقول : حرف وجوب لوجوب . وزعم ابن السراج ، وتبعه الفارسي، وتــبعهما ابن جني ، وتبعهم جماعة أنها ظرف بمعنى حين " [١٩] ، و يشير بقوله (و يقال فيها ...) إلى اختلاف النحويين بين القول بظرفيتها أو حرفيتها .

و مثله ما جاء في المساعد على تسهيل الفوائد من قول ابن عقيــل :(" إذا ولي (لما) فعل ماضٍ لفظا ومعنى فهي ظرف بمعنى (إذا) فيه معنى الشرط " ... وكون (لما) بمعنى اسما مراداً به الظرفية الماضية هو قول أبي علي وابن جني وأبي بكر الفارســـــي ، و استشهد لهذا القول بقوله :

إني لأرجــو محـــــرزا أن ينفعــا

إياي لما صرت شيخــــــــا أقلعــا

...لأنها قد جاءت لمجرد الظرفية... و يحتمل كون جواب (لما) محذوفا لفهم المعنى ، أي لما صرت شيخا أقلعا حصل لي هذا الرجاء " أو حرف يقتضي فيما مضى وجوبا لوجوب " والحرفية فيها مذهب سيبويه والمحققين ، فإذا قلت : لما قام زيد قام عمرو أفادت (لما) ربط الجملة بالجملة كما تفيده (لو) إلا أن (لو) تدل على عدم

---

(١٧) انظر المصدر السابق

(١٨) سيبويه ج٤ ص٢٣٤ ، وانظر الرماني : كتاب معاني الحروف ص١٣٢

(١٩) ابن هشام : المغني ص٣٦٩

الوقوع بالنسبة إلى وقوع الملزوم . و (لما) تدل على ربط واقع بواقع و عن هذا قيل : هي حرف وجوب لوجوب... و استدل لسيبويه بمجيء جوابها منفيا بما و مصدرا بإذا الفجائية و ما بعدهما لا يعمل فيما قبلهما ، قال تعالى﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته﴾ و قال ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾)[٢٠]، و يستظهر ابن عقيل حرفية (لما) فيقول:" وقول المصنف : فهي كذا وكذا يُشعر بثبوت الأمرين لها . وقد عرفت أنهما قولان قائل أحدهما لا يقول بالآخر، وكأنه رأى أنها تتجرد للظرفيه بناءً على ظاهر ذلك الشاهد ، وتأتي للربط مع امتناع عمل الجواب فيها كما في صورتي (ما وإذا) فاثبت لذلك لها الأمرين . وقد عرفت ما في الشاهدين من الاحتمال فتعيّن المصير إلى الحرفية أو ظهر)[٢١] .

ومما ذكره العلماء من أحكامها ما أورده الزركشي من (أن من شأنها أن تدل على أن الفعل الذي هو ناصبها قد تعلق بعقب الفعل الذي هو خافضته من غير مهلة)[٢٢]

وممن تحدث عنها من المفسرين في أكثر من موضع محاولا التأكيد على أنها حرف أبو حيان ومن ذلك حديثه عنها عند تفسير آية الأعراف ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾١٣٥. و قد رجح أبو حيان أن (لما) فيها حرف وجوب لوجوب فقال: " و مجيء إذا الفجائية جوابا لـ (لما) مما يدل على أن (لما) حرف وجوب لوجوب كما يقول سيبويه لا ظرف كما زعم بعضهم لافتقارهم

(٢٠) ابن عقيل : المساعد ج ٣ ص ١٩٧ – ١٩٩

(٢١) ابن عقيل : المساعد ج٣ ص١٩٧-١٩٩ ، وانظر الزركشي : البرهان ج٤ ص٣٨٣ ، السيوطي : همع الهوامع ج١ ص٢١٥ ، الإتقان ج ١ ص١٧٣

(٢٢) الزركشي : البرهان ج٤ ص٣٨٥

إلى عام فيه ، و الكلام تام لا يحتمل إضمارا ، و لا يعمل ما بعد (إذا) الفجائية فيما قبلها "[٢٣]، فهو يستدل بمجيء (إذا) الفجائية على كون (لما) حرف وجوب لوجوب، حيث لا يمكن إعمال ما بعد (إذا) الفجائية فيما قبلها ، و بذلك ينتفي أن تكون (لما) ظرف. و هو في هذا يلتقي مع ابن عقيل ،و الزركشي[٢٤]. و يقول عند تفسير آية يونس ﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ...﴾ ٢٣ : " و لفظة (لما) مشعرة بالعلية ... و أنت ترى حيثما جاءت (لما) كان جوابها أو ما قام مقامه متسببا عما بعدها ، فدل ذلك على صحة مذهب سيبويه من أنها حرف وجوب لوجوب"[٢٥]. و يقول أيضا في موضع قريب من هذا عن (لما) و كون جوابها مقترنا بإذا الفجائيـــة : " و جواب لما (إذا) الفجائية و ما بعدها ، و مجيء (إذا) و ما بعدها جوابا لها دليل على أنها حرف يترتب ما بعدها من الجواب على ما قبله من الفعل الذي بعد (لما) ، و أنها تفيد الترتب و التعليق في المضي ، و أنها كما قال سيبويه حرف ومذهب غيره أنها ظرف . و قد أوضحنا ذلك فيما كتبناه في علم النحو ، والجواب بإذا الفجائية دليل على أنه لم يتأخـــــر بغيهم من إنجائهـــم بل بنفس ما وقع الإنجاء وقع البغي " [٢٦] .

مما سبق نســـتطيع أن نلمح أوجه شبه و اختلاف بين الأدوات الثلاثة (إن ، إذا ، لما) ، فهم يشتركون جميعا في حاجتهم إلى ابتداء وجواب ، ثم يختلفون في طبيعة هذا الابتداء والجواب. فـــ (إن) تدخل على المشكوك و (إذا) تدخل على المحقق والراجح ، في حين يمكن أن نلمح قدرا من التأكيد و الوجوب في دلالة (لما) مستخلصا

(٢٣) أبو حيان : البحر المحيط ج ٤ ص ٣٧٥

(٢٤) انظر الزركشي : البرهان ج ٤ ص ٣٨٣

(٢٥) أبو حيان ج ٥ ص ١٣٤ في تفسير آية يونس ١٢

(٢٦) أبو حيان ج ٥ ص ١٤٣ آية يونس ٢٣

من كونها حرفا يقتضي في الماضي وجوبا لوجوب ، و يربط واقعا بواقع .

وتتشابه (لما) مع (إذا) في عدة أمور : منها أنهما تدخلان غالبا على الفعل الماضي ، و في هذا إشارة إلى تحقق الوقوع ، بخلاف دلالة (إن) . كما تلتقي مع إذا في كون جوابها يأتي بعد شرطها بلا مهلة ، و في كونه يأتي أحيانا جملة فعلية فعلها ماض غالبا، و أحيانا جملة اسمية مسبوقة بالفاء ، أو بإذا الفجائية . هذه الأمور تجعل دلالتهما على تحقق الوقوع متقاربة ، غير أنه من الممكن أن نلمح في (لما) مزيدا من التوكيد ، لما تدل عليه من تحقق وجود جملة الجواب عند تحقق وجود فعل الشرط في الماضي، بخلاف (إذا) التي تجعل الفعل معها مفيدا للاستقبال . و بعبارة أخرى فإن الجزاء يقع لا محالة مع تحقق وقوع الشرط و الشرط محقق الوقوع بدلالة كونه ماضيا ، و دخول (لما) عليه .

و تنفرد (إذا) بدلالتها على الاستمرار الذي سيتضح أكثر بتأمل السياقات ، و دلالتها على العموم التي اختلف فيها النحويون . و سنجد أن السياق هو الذي يستدعي ما يناسبه من أدوات الربط هذه .

مواقع هذه الأدوات في القرآن :

والمتأمل في الآيات التي تذكر موقف الإنسان إزاء ابتلاء الله له بالخير و الشر يستطيع أن يقسمها ثلاثة أقسام ، الأول : يُذكر فيه موقف الإنسان في حالي السراء والضراء عامةً ، الثاني : يُذكر فيه موقف الإنسان إذا أعقبت إحدى الحالين الأخرى ، والثالث : يُذكر فيه موقف الإنسان حال تخلصه من الشدة . والذي دعا لهذا التقسيم اختلاف مواقف الإنسان ذاته حيالها و اختلاف رد القرآن على هذا الموقف .

واللافت للنظر في هذا الصدد أن الأداة (لّما) قد تكرر ورودها كثيراً في القسم الثالث في حين تراوح ورود (إنْ ، وإذا) في القسمين الآخرين ، وإن اختلفت دلالتهما – كما سيتضح – من موطن لآخر .

القسم الأول :

ومن أشهر الآيات التي تحدث عنها المفسرون والبلاغيون قوله تعالى في سورة الأعراف:﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ آية (١٣١) فهؤلاء أرسل الله تعالى الآيات في قوله:﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾ {الأعراف١٣٠}،لعلهم يرجعون وينيبون إلى ربهم ولكنهم عوضاً عن ذلك قابلوا هذا الأمر بما يبين شدة بطرهم فكانوا إذا جاءتهم الحسنة من خصب وسعة وصحة قالوا إننا مستحقون لها وهي مختصة بنا[٢٧]، وإن جاءتهم السيئة من قحط وجدب وضر وبلاء تشاءموا بموسى ومن معه " وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة ، فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك وتزيل التماسك سيما بعد مشاهدة الآيات . وهي لم تؤثر فيهم بل زادوا عندها عتوّاً وانهماكاً في الغي"[٢٨] . وتزداد صورة جحودهم قبحا وشناعة بما بينته الآيات من بُعد المسافة بين إحسان الله إليهم وما قابلوه بها من الجحود. يوضح ذلك مجيء وصف حصول نعمتهم بـ (إذا الشرطية) التي تفيد تحقق الوقوع مع تعريف (الحسنة) لتشمل كل أنواع الحسنات ووصف وقوعهم في الجدب والضر بـ (إنْ) التي تفيد ندرة الوقوع مع تنكير لفظ (سيئة) الذي يفيد التقليل ليشير إلى أن شيئاً قليلاً من هذه السيئات هو الذي يقع عليهم ، يقول الزمخشري " فإن قلت كيف قيل فإذا جاءتهم الحسنة بـ (إن) وتنكير السيئة ؟ قلت : لأن جنس الحسنة وقوعه

(٢٧) الزمخشري : الكشاف ج٢ ص١٠٦ وانظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ج٤ ص٢٠٧

(٢٨) البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج٤ ص٢٠٨ وانظر أبو السعود : تفسير أبي السعود ج٣ ص٢٦٤

كالواجب لكثرته واتساعه وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها "[(٢٩)]

فالحسنات تحصل لهم بصفة مستمرة – بدلالة إذا[(٣٠)]– والسيئات تقع لهم نادرا وهذا من رحمة الله بهم ، ثم يكون في كل مرة جزاؤهم عند مجيء الحسنات بطراً وفرحاً ، وعند مجيء السيئات تشاؤما بنبيهم المرسل إليهم ومن معه من المؤمنين ، بل إنهم لا يمهلون جوابهم و إنما يأتون به عقب مجيء الحسنات و إصابة السيئات بلا مهلة ، و هذا أوضح في بيان جحودهم . ولذلك يرد القرآن عليهم بأن نصيبهم من الخير والشر مكتوب مقدرٌ لهم عند الله تعالى ، ولكنهم لا يعلمون . و فيه تنبيه لهم من غفلتهم ودواء لجهالتهم الجهلاء بإثباتهم الاستحقاق للفضل لأنفسهم ، و تطيرهم عند إصابة السيئات بموسى عليه السلام .

وقد أورد ابن المنيّر تنبيهاً على دلالة (إن و إذا) كما ذكرها الزمخشري فقال:"قال أحمد : وقد ورد – وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك – فلم يراع فرق ما بينهما ، ولعل بين سياق الآيتين اختلافاً أوجب في كل واحد منهما ما ذكر فيه "[(٣١)] ، فهو ينبه إلى أن ما قاله الزمخشري ليس مطردا في كل القرآن بل تأتي أحيانا إصابة الحسنات بإن – كما في آية النساء –

ولم أجد في كلام المفسرين الذين اطلعتُ على كتبهم من أشار إلى الفرق ووجدت في سياقات أُخر بعض الإشارات التي قد تعين على فهم دلالة ورود(إنْ) في جانب الحسنة والسيئة في الآية فقد ذكر السكاكي أن هناك من أجاب عن ورود (إذا)

(٢٩) الزمخشري ج ٢ ص ١٠٦ ، و انظر شروح التلخيص ج ٢ ص ٤١ – ٤٢

(٣٠) انظر ص ٣ من هذا البحث

(٣١) ابن المنير : الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، بهامش الكشاف ج٢ ص١٠٢

في جانب مس الشر في قوله تعالى :﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾{ فصلت٥١} ، بأن الذي تقتضيه البلاغة " أن يكون الضمير في مسه للمعرض المتكبر ، ويكون لفظ (إذا) للتنبيه على أن مثله يحق أن يكون ابتلاؤه بالشر مقطوعاً "[٣٢] ، فقد خالفت الآية الاستعمال القرآني لـ (إن) في إصابة السيئات و جاءت بـ (إذا) الدالة على تحقق الوقوع ؛ لأن إصابة الشر لمن يعرض عن ذكر ربه و يتكبر ينبغي أن تكون من الأمور المقطوع بها . ولحظت – كما سيأتي – أن مجيء (إن) مع مس الرحمة خلافا لعادة القرآن في آية فصلت ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير و إن مسه الشر فيئوس قنوط ، و لئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي و ما أظن الساعة قائمة و لئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ ٤٩ – ٥٠ ، لأن المذكور في آية فصلت إنسان قليل الصبر كثير الشر، و مع ذلك يعامله الله تعالى بلطفه فيبتليه بالشر نادرا ، بما دل عليه استعمال (إن) في قوله ﴿ و إن مسه الشر ﴾. و قد يكون مجيء إن في إذاقة الرحمة في قوله ﴿ و لئن أذقناه رحمة ﴾ نظرا لما ينبغي أن يعامل به لسوء حاله مع ربه . و قد نستطيع القول بمثله في آية النساء وهو أن إصابة الحسنة لهؤلاء المنافقين ينبغي أن تكون من الأمور نادرة الوقوع و لذلك جيء بقوله ﴿ إن تصبهم حسنة ﴾.

و في سياق آخر وجدت د. أبو موسى في كتابه خصائص التراكيب يرى أن (إن) قد تأتي لمجرد الربط في بعض السياقات نحو قوله تعالى ﴿ إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ﴾{ النساء ١٣٥} و قول الشاعر :

---

(٣٢) أبو يعقوب السكاكي : مفتاح العلوم ص ٢٤٣ ، و انظر القزويني : تلخيص المفتاح ، عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ج ٢ ص ٤٢ ، الزركشي ج٤ ص٢٠٢ وانظر السيوطي : الإتقان ج١ ص١٤٩

إذا رأينـــــــــــا ذوي عنايتـــه

لديـــه خلنـــاهـــم ذوي رحمـــــــــــه

و إن نزلنـــــــــــا حريمه فلنـــا

هنـــاك أمـــن الحمام في حرمـــــــــه

فهـــو يقـــول عن الآية " فإني لا أرى فيها أكثر من مجرد الربط "(٣٣) ، و مثله دلالتها في بيت الشعر (٣٤). و هذا الاحتمال وارد أيضا في آية النساء .

وفي سورة الإســـراء يأتي موضـــع آخر لبـــيان حال الإنسان من الجحود والنكران،يقول تعالى:﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوسا ﴾ {الإسراء ٨٢ – ٨٣}

فهو في حالي النعمة ومس الشر ناكر للجميل ، ففي حال إنعام الله عليه يعرض عـــن ذكره ، و يتباعد تكبرا وبطرا " ، فإذا زالت النعمة عنه لم يقلع عن الشرك والكفر ويتوب إلى الله ، ولكنه ييأس من الخير ، ويبقى حنقا ضيق الصدر لا يعرف كيف يتدارك أمـــره"(٣٥) . وهـــذا الخلق الذميم راجع إلى حبه للدنيـــــا ، وتولعـــــه بما هو فيه من الـــنعم (٣٦)حتى إنها تشغله عن الانصراف للطاعة و تنسيه ذكر المنعم . و لذلك فإنها إذا زالت عنه و وقع في ضر أو ضيق يضيق صدره ، وييأس من رحمة الله ، لأنه لم يكن حال

(٣٣) د. محمد أبو موسى : خصائص التراكيب ص ٣٣١

(٣٤) انظر المرجع السابق

(٣٥) الطاهر: التحرير والتنوير ج١٥ ص ١٩٣

(٣٦) انظر الرازي ج٢١ ص٣٥،الطاهر ج١٥ ص١٩١

النعمة مدركا لمظاهر رحمته الكامنة فيها.

وإذا كان المفسرون مجمعين على أن الموصوفين بالجحود هم الكفار في آية الأعراف، فإنهم في آية الإسراء هنا مختلفون ، فيذهب بعضهم إلى أن المراد الكافر[٣٧]، ويذهب بعضهم إلى أن المراد جنس الإنسان[٣٨]، ولكن هناك فريق ثالث لم يصرّح بالمراد، وإنما نفهم من وصفه لهم أن المقصود الكفار، فمثلا الزمخشري يذكر في تفسير(يئوسا) قوله تعالى ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ مما يشير إلى أن المقصود بهم الكفار[٣٩]، وكذلك يُفهم من كل من الرازي[٤٠] والبقاعي الذي – مع ذكره أنها للجنس – فسر قوله (يئوسا) بشدة اليأس من رحمة الله[٤١]،ومثله البيضاوي[٤٢]، وأبو السعود[٤٣]، ولعـــل هذا هو الأرجح لأن الإعراض والتكبر عن ذكر الله وشدة اليأس من رحمته لا تليق إلا بالكافر[٤٤]. إضافة إلى أن اتصال الآية بذكر كون القرآن شفاءً للمؤمنين خسارا للكافرين، مما يفيد بيان حال الكافر مقابل المؤمن ،

(٣٧) انظر ابن عطية : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج١٠ ص٣٣٨ ،أبو حيان ج٦ ص٧٣، الطاهر ج١٥ ص١٩١

(٣٨) انظر البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات و السور ج١١ ص٤٩٨

(٣٩) انظر الزمخشري ج٢ ص

(٤٠) انظر الرازي ج٢١ ص٣٥

(٤١) انظر البقاعي ج١١ ص٤٩٩

(٤٢) انظر البيضاوي بحاشية الشهاب ج٦ ص٥٧

(٤٣) انظر أبو السعود ج٥ ص١٩١

(٤٤) كما ذهب الزمخشري وابن عطية والبقاعي وأبو السعود والبيضاوي والشهاب والألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني في آية فصلت رقم(٥٠)التي تشبه هذه الآية،انظر الكشاف ج ٣ ص٤٥٧ ،ابـــن عطـــية ج٨ ص١٩٧ ،البقاعـــي ج١٧ ص٢١٧ ،أبو السعود ج ٨ص١٩ ، حاشية الشهاب ج٧ ص٤٠٤ ،الألوسي ج٢٥ ص٤.

وإلى هذا ألمح كل من أبي حيان[٤٥]، والطاهر[٤٦] . فالغالب أن الإنسان هنا الكافر الذي لم يزده القرآن إلا خسارا، فلم يتدبر ما فيه ولم يتعظ به_كما فعل المؤمن _ليكون له شفاءً من الجهالة ، ورحمة يتحقق فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه. وقد أعقبت الآيات بالإشارة إلى أن هناك سبيلين أو أكثر، والله تعالى مطلع على عمل كل عامل ، وعلى السبيل الذي اختاره . وهي دعوة لهم للتبصر و التأمل ليختاروا الطريق الحـــق . و كونها في الكافر فهي تعرض بمن يفعل ذلك من المؤمنين ، و تشير إلى أنه لا ينبغي لهم سلوك سبيل الكافرين .

والآيـــات هـــنا تـــشير إلى شدة كفران الإنسان لربه مقابل لطف الله به، فهذا الإنـــسان إذا أنعـــم الله عليه بأنواع النعم التي لا يمكن حصرها – بما دل عليه حذف المفعـــول[٤٧] – وجـــاء هـــذا كثيرا[٤٨]متحقق الوقوع[٤٩]، فإن ردّه المباشر[٥٠] يكون بالإعراض عن المنعم والاستكبار عن طاعته،فإذا مسّه – لاستحقاقه ولطف الله به – أدنى قدر من هذا النوع المسمى(الشر) ، وهذا جدير به لإعراضه عن القرآن ، ييأس من رحمة ربه ويبالغ في هذا اليأس كما دلت عليه صيغة المبالغة (كان يئوسا) . بل إن فعل الكون دلّ علـــى رسوخه في هذه الصفة الذميمة[٥١] وهذا أدعى للعجب ؛ فإن إعراض المنعم عليه لانشغاله بالنعمة أمر وارد حسب جبلة الإنسان المطبوعة على الغفلة والنسيان. أما

(٤٥) انظر أبو حيان ج٦ ص٧٣

(٤٦) انظر الطاهر ج١٥ ص١٩١

(٤٧) انظر البقاعي ج١١ ص٤٩٨، و انظر شروح التلخيص ج ٢ ص ١٤٠

(٤٨) انظر الكشاف ج٢ ص١٠٦في تفسير آية الأعراف١٣١، وكل من البقاعي ج١٥ ص٩٥،الشهاب ج ٧ ص١٢٢،الألوسي ج٢١ ص٤٣في تفسير آية الروم٣٦.

(٤٩) بما دلت عليه (إذا)من كونها للمتحقق،انظر ص ٢ من هذا لبحث.

(٥٠) بما دلت عليه(إذا) من تعقيب جوابها لشرطها دون تأخر، انظر الزركشي ج٤ ص٢٠٣.

(٥١) انظر الطاهر ج١٥ ص١٩٣.

يأسه من رحمة ربه حال الضر فأمر مستغرب ، لأن الشدائد – كما سبق – ترقق القلوب .

وقد أشار الرازي إلى حاله هذا بقوله: "والحاصل أنه إن فاز بالنعمة والدولة اغتر بها فنسي ذكر الله ، وإن بقي في الحرمان عن الدنيا استولى عليه الأسف والحزن ، ولم يتفرغ لذكر الله تعالى، فهذا المسكين محروم أبدا عن ذكر الله ونظيره قوله تعالى ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقول ربي أكرمن ﴾ إلى قوله ﴿ ربي أهانن ﴾ وكذلك قوله ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسّه الشر جزوعا وإذا مسّه الخير منوعا ﴾ "[٥٢]

ومما هو جدير بالالتفات إليه دلالة(إذا)هنا على الاستمرار[٥٣] ، ودلالتها على العموم[٥٤]،فأما الاستمرار فإنها تدل على أن هذا شأنهم أبدا ومستمر ، وأما العموم فهي تعني أنهم كلما أُنعم عليهم أعرضوا وتكبروا، وكلما مسّهم الشر يئسوا ، وهذان الأمران يقويان كون المراد بالإنسان الكافر في هذه الآية، لأن هذا الخُلُق ليس من أخلاق المؤمنين الذين إذا أُعطوا شكروا،وإذا ابتُلوا لجأوا إلى الله تعالى لينقذهم مما هم فيه،لإيمانهم بربهم وصدق يقينهم في مشيئته وقدرته ورحمته.

وفي سورة الروم موطن مشابه للموطن السابق في اليأس حال النقمة ، يقول تعالى ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم

(٥٢) الرازي ج٢١ ص٣٦،٣٥.

(٥٣) انظر الزركشي:البرهان ج٤ ص١٩٤،وانظر السيوطي:الإتقان ج ١ ص١٤٩.

(٥٤) انظر ابن عقيل :المساعد ج٣ ص١٥٥،١٥٦،الزركشي ج٤ ص٢٠٣.

يقنطون ﴾ { الروم ٣٦} ، والناس هنا – كما يفهم من كلام أغلب المفسرين[٥٥]– الكفار المذكورون في الآية السابقة على هذه وهي قوله تعالى﴿ و إذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾{٣٣-٣٤}، ويصرح بذلك الرازي بقوله : " لما بيَّن حال المشرك الظاهر شركه بيَّن حال المشرك الذي دونه وهو من تكون عبادته للدنيا ، فإذا آتاه رضي و إن منعه سخط و قنط "[٥٦]، فهؤلاء يقابلون نعمة الله تعالى ورحمته بالفرح والبطر ، وابتلاءه بالقنوط واليأس. والآية أيضا_كمثيلاتها_تبين بُعد ما بين رحمة الله بهم وكفرانهم له تعالى، فمع تحقق ذوقهم للرحمة وتنعمهم بأنواع الخصب والسعة والصحة، وقلة وندرة إصابتهم بالسيئة– بما دلت عليه أداة الشك(إن)والفعل المضارع[٥٧] – فإنهم حال النعمة يبطرون ، وحال الإصابة بالسيئة – مع أنها بسبب سيئاتهم – يبادرون إلى القنوط دون تمهّل بما دلت عليه(إذا) الفجائية[٥٨]. وحالهم هذا مع ذوق النعمة – وهو ما يصيبهم منها من أقل القليل[٥٩] – من الفرح والبطر دائم ومستمر[٦٠]. فهم كلما حصلت لهم فرحوا بها لذاتها لا لكونها من الله ، وفيه كما ذكر

---

(٥٥) انظر الزمخشري ج ٣ ص ٢٢٣ ، ابن عطية ج ١٢ ص ٢٦١ ، البقاعي ج ١٥ ص ٩٤ ، أبو السعود ج ٧ ص ٦١ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٢٣ المتن و الهامش ، الألوسي ج ٢١ ص ٤٣

(٥٦) الرازي ج ٢٥ ص ١٢٣ ، و انظر الطاهر ج ٢١ ص ١٠٠

(٥٧) ذكر ذلك البقاعي والشهاب في آية الروم ٤٨ ، انظر البقاعي ج ١٧ ص ٣٥٠ ، حاشية الشهاب ج٧ ص ٤٢٨.

(٥٨) انظر سيبويه ج ٤ ص ٢٣٢ ، ابن هشام : مغني اللبيب ص ١٢٠ ، الزركشي ج ٤ ص ١٩٠ ، ١٩٤ ، السيوطي : همع الهوامع ج ١ ص ٢٠٧ ، السيوطي : الإتقان ج ١ ص ١٤٨

(٥٩) انظر الرازي ج٢٥ ص١٢١.

(٦٠) انظر الزركشي:البرهان ج٤ ص١٩٤،السيوطي ج ١ص١٤٩.

الرازي " إشارة إلى دنو همتهم و قصور نظرهم ، فإن فرحهم يكون بما وصل إليهم لا بما وصل منه إليهم"[٦١] ، وهو أمر متكرر منهم[٦٢]. وإن أصابتهم السيئة نادرا بادروا بالقنوط واليأس ، بل واستمروا فيه بدلالة المضارع[٦٣].وهذا من قلة معرفتهم بربهم وأنه بيده ملك السماوات والأرض يبسط الرزق و يقدره بمشيئته ، ولو عرفوا ذلك لمنعهم من اليأس حال إصابتهم السيئة، وهو ما جعل القرآن الكريم يعقب هذه الآية بقوله ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ {٣٧}، يقول ابن عطية: " ذكر تعالى الأمر الذي من اعتبره لم ييأس من روح الله على حال، وهو أن الله تعالى يخص من يشاء من عباده ببسط الرزق ويقدر على من شاء منهم"[٦٤].فالله تعالى هو المالك الحقيقي للملك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا لضرها دفعا، ومن هنا ذهب الزمخشري إلى أن مغزى الآية الأخيرة هو الإنكار عليهم، يقول:" ثم أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض فما لهم يقنطون من رحمته" [٦٥]، ويتعاضد مع هذا الفهم ما ذكره الطاهر بن عاشور من أن القنوط هو محل الإنكار ، وهو ما جعل الحال تقتضي تقديم إصابة الرحمة ، يقول : " وقـُدّمت في هذه الآية إصابة الرحمة على إصابة السيئة، عكس التي قبلها ؛ للاهتمام بالحالة التي جُعلت مبدأ العبرة وأصل الاستدلال ، وقوله ﴿ فرحوا بها ﴾ وصف لحال الناس عندما تصيبهم الرحمة ليبني عليها ضده في قوله

---

(٦١) الرازي ج ٢٥ ص ١٢٣ آية الروم ٣٦

(٦٢) بمـا أشار إليه ابن عصفـور ونقله عنه ابن عقيل في المساعد ج٣ ص١٥٥،١٥٦،والزركشي ج٤ ص٢٠٣.

(٦٣) انظر البقاعي ج١٥ ص٩٥،حاشية الشهاب ج٧ ص١٢٣،الألوسي ج٢١ ص٤٣.

(٦٤) ابن عطية ج١٢ ص٢٦٢،وانظر أبو حيان ج٧ ص١٦٩.

(٦٥) الزمخشري ج٣ ص٢٢٣،وانظر البقاعي ج١٥ ص٩٥،أبو السـعود ج٧ ص٦١،حاشية الشهاب ج٧ ص١٢٣المتن والهامش،الألوسي ج٢١ ص٤٣،الطاهر ج٢١ ص١٠١.

﴿ إذا هم يقنطون ﴾ لما يقتضيه القنوط من التذمر والغضب ... فالقنوط هو محل الإنكار عليهم ، وهذا كقوله تعالى ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسّه الشر فيئوس قنوط ﴾ في أن محل التعجيب هو اليأس والقنوط"[٦٦] فالآية تُنكر عليهم هذا القنوط ، ثم تتبعه بإنكار آخر لإهمالهم التأمل في سنة الله سبحانه وتعالى في تقسيم الرزق . وإذا أراد الباحث أن يوازن بين تعقيب هذه الآية بقوله : أولم يروا ... وتعقيب شبيهتها في الإسـراء بقولـه: " قل كل يعمـل على شاكلته ... التي رأى فيه بعض المفسرين تهديداً [٦٧] ؛ يجد فرقا بين مجرد الإنكار في آية الروم وإخبار الله بعلمه الذي يفيد مجازاته كل عامل بعمله [٦٨] في الإسراء ، ولعل السبب في هذا هو أن آية الإسراء قد ذكرت انقسام الناس تجاه القرآن إلى فريقين ، فريق يجد فيه الشفاء والرحمة ، وفريق يكون عليه القرآن خسارا ، وهو ما ناسب أن يُخبر تعالى أنه أعلم بطريقة كل من الفريقين ، أما آية الروم فقد جاءت عقب فيض من آيات الله في الكون وسننه الربانية ، ومن ضمنها بسطه الرزق لمن يشاء وتقتيره على من يشاء ، وجاء ذكر موقف الإنسان الجاحد مدمجا في تعداد نعم الله تعالى مما جعل الآيات تحمل دلالة النصح لا التهديد مثل سابقتها التي يُذكر فيها تعقيب إحدى الحالين بالأخرى وهي إصابة الرحمة بعد الضر .

وتشبه آية الروم في سبقها بآية تذكر ذوق الرحمة بعد مس الضر آية فصلت يقول تعالى ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ {٥١} بعد قوله تعالى الذي سيأتي ذكره في القسم الثاني ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي...﴾{٥٠} والإنسان في آية فصلت هو الكافر

(٦٦) الطاهر ج٢١ ص١٠٠،١٠١.

(٦٧) انظر ابن عطية ج ١٠ ص ٣٣٩ ، ابن كثير ج ٤ ص ٣٤٤

(٦٨) انظر الشهاب ج ٥ ص ١٧ في تفسير آية يونس ٢٢

غالبا – وإن كان بعض المفسرين يذكر ما يوهم أن المراد به غير الكافر(٦٩)– و قد صرّح ابن جرير(٧٠) والرازي (٧١) أن المراد به الكافر. وتوجيه المفسرين لقوله تعالى (أعرض) على أنه بمعنى أعرض عن ذكر الله وتعظيمه لأمره (٧٢) ولقوله (نأى بجانبه) إلى معنى لوى عطفه واستكبر(٧٣) يشير إلى أن المراد الكافر. ثم إن السياق كله في ذكر الكفار ، و إشارة بعض المفسرين إلى أن الجحود وإن كان في الإنسان عامة فإن الإيمان بالله يهذبه(٧٤) ، يجعل المقصود به في هذا السياق الكافر . فالإنسان هنا إذا أنعم الله تعالى عليه أعرض عن ذكره وطاعته ، وإذا مسه الشر أسرع إلى الابتهال ليخرج مما هو فيه . و لا يتنافى هذا مع يأسه في الآية السابقة لها ﴿ فيئوس قنوط ﴾ ولا مع قوله في موضع آخر﴿ وإذا مسه الشر كان يئوسا ﴾ {الإسراء ٨٣} ، لأن دعاءه هنا لانشغاله بالنعمة عن المنعم و حزنه على فواتها ، و ليس اعترافا منه بفضل الله عليه . و لعل قوله ﴿ ذو دعاء ﴾ دون (دعانا أو دعا ربه) يشير إلى هذا ، فهو حال مسه الشر يضيق صدره و يفزع إلى الدعاء برجوع النعمة ناسيا أنه كان – حال النعمة – معرضا عن المنعم تاركا لدعائه ، و هذا " بيان ما طبع عليه الإنسان من الرغبة في الخير و السعة، والنفرة و الكراهة للشدة والبلاء لا حقيقة ما ذكر بل إنه حريص الطمع هلوع الجزع

---

(٦٩) انظر الزمخشري ج٣ ص٤٥٧ ، ابن عطية ج١٤ ص١٩٨ ، البقاعي ج١٧ ص٢٢١ ، حاشية الشهاب ج٧ ص٤٠٥ ، الطاهر ج٢٥ ص١٤

(٧٠) انظر ابن جرير ج٢٥ ص٤٠٣

(٧١) انظر الرازي ج٢٧ ص١٣٨

(٧٢) انظر الزمخشري ج٣ ص٤٥٧ ، الرازي ج٢٧ ص١٣٨ ، البقاعي ج١٧ ص٢٢١ ، أبو السعود ج٨ ص١٩

(٧٣) انظر المصادر السابقة ، و حاشية الشهاب ج ٧ ص ٤٠٥ المتن و الهامش

(٧٤) انظر ابن عطية ج١٤ ص١٩٨ ، الطاهر ج٢٥ ص١٤

قولا و فعلا ، حتى إنه لعدم اعتماده على خالقه و سخافة عقله أحواله متناقضة ، و ظاهره مناف لباطنه ، وهو لشدة ذهوله وولهه و اضطرابه يصعد في هبوطه و يدعو مع قنوطه ، كما أشار إليه السمرقندي في تفسيره ، و تبع أثره المدقق في الكشف ، حيث قال : في ذكر الوصفين ما يدل على أنه عديم النهية ضعيف الهمة إذ اليأس و القنوط ينافيان الدعاء العريض ، و أنه كالغريق المتمسك بكل شيء" [٧٥]. ونقل الألوسي عن بعض الأجلة أن " التضرع جزعا على الفقد ليس رجوعا إلى المنعم بل تأسفٌ على الفقد المشغل عن المنعم كل الإشغال"[٧٦]

أما أواخر الآيات فمن الملحوظ هنا أنه أعقبت بقوله تعالى ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ {٥١ }، وهو يحمل تحذيرا خفيا من التمادي في الكفر بإلزامهم بالحجة و فيه " حث على التأمل ، و استدراج للإقرار ، مع ما فيه من سحر البيان ، و حديث الساعة وقع في البين تتميما للوعيد ، و تنبيها على ما هم عليه من الضلال البعيد "[٧٧] ، و لعل هذا التحذير مما يلائم السياق العام للسورة من ذكرها لجزاء الكافرين من الأمم السابقة . و عموما لا نلمس قوة في التهديد فيما يعقب الآيتين هنا آية الروم ، و آية فصلت . و لعل السبب في ذلك – في حال كون المقصودين هنا هم الكفار المذكورون في الآية السابقة على هذه – تقدم ذكر العقوبة في قوله في سورة الروم ﴿ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ و في سورة فصلت﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا و لنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ ، أو لعله – وهو الأولى حسب اعتقادي – لجأ إلى الإقناع لا إلى التهديد الشديد بذكر آيات

(٧٥) حاشية الشهاب ج ٧ ص ٤٠٦ ، و قد ألمح إلى قريب من هذا المعنى البقاعي ج ١٧ ص ٢٢٢

(٧٦) الألوسي ج ٢٥ ص ٥

(٧٧) حاشية الشهاب ج ٧ ص ٤٠٦

القدرة في آية الروم و المحاجة في فصلت ؛ لأن الإنسان في الآيتين موضع الدرس لم يبلغ درجة كبيرة من التمرد و التعدي كالذي في الآيتين اللتين سبقتهما من الإشراك بالله في الأولى ، و الجرأة عليه بإنكار البعث في الثانية.

و قد أشار السكاكي – كما سبق أن ذكر(٧٨) – إلى الحكمة من خروج هذه الآية عن عادة القرآن في استعمال (إذا) التي تأتي غالبا مع ذكر الإنعام و أتت هنا مع مس الشر ، و أشار البقاعي إلى حكمة أخرى في استعمال أداة التحقيق (إذا) فقال : " فقال معبرا في جانب الشر بأداة التحقيق على غير عادة القرآن في الأغلب ليدل على أنه لزيادة جهله على الحد الذي يلزم الكبر و إن كان يتوقع الشر ، و لا يزال حاله حال الآمن إلى أن يخالطه و حينئذ تنحل عراه و تضمحل قواه "(٧٩)، فهو يرى أن (إذا) أتت للدلالة على حال هذا الجاهل من توقع حصول الشر ، فالفرق بين رأيه و رأي الخطيب أنه وجَّه تحقق الوقوع إلى توقع الإنسان ذاته ، في حين وجهه الخطيب إلى وجه استحقاقه له من الله تعالى . و بهذا تتضح الحكمة من مجيء (إذا) في تحقق وقوع الحالين (الإنعام و مس الشر) . و قد رأى البقاعي امتداد زمن الجواب على قدر امتداد زمن الشرط مع (إذا) حيث قال : " جعل ظرف النعمة ظرفا للإعراض ، من غير خوف من نزعها "(٨٠) ، و قال في مقابله : " ﴿ أعرض ﴾ أي انحرف عن سواء القصد إلينا عنا ، في جميع مدة النعمة بما أفهمه الظرف"(٨١). و قد أشار إلى هذا المعنى في أكثر

(٧٨) انظر ص ٨ من هذا البحث

(٧٩) البقاعي ج١٧ ص ٢٢٢

(٨٠) المصدر السابق ص ٢٢١

(٨١) المصدر السابق

من موضع[٨٢] ، فهو يحدد زمن الجواب بزمن الشرط . و لم أجد هذا المعنى في كتب النحو التي اطلعت عليها ، ووجدت الزركشي يذكر امتناع " دخول (إذا) على المشكوك إذا لحظت فيها الظرفية ؛ لأن المعنى حينئذ التزام الجزاء في زمان وجود الشرط "[٨٣] ، و ينقل عن ابن الزبير " أن جواب الشرط فيها يعقب فعل الشرط على الاتصال و لا يتأخر عنه "[٨٤]. و الذي يفهم من نص الزركشي و ابن الزبير تقييد ابتداء زمن الجواب بابتداء وقوع زمن الشرط . و لعل البقاعي فهم امتداد زمن الجواب على مقدار زمن الشرط من دلالة إذا على الاستقبال ، كما ذكر النحويون[٨٥] ، فهو يريد أن يقول إن الإعراض ممتد في زمن وجود النعمة الحاصلة في الزمن المستقبل بدلالة (إذا) على الاستقبال ، و كذلك الدعاء ممتد في زمن مس الشر . وهو أمر متكرر منهم بما دل عليه معنى العموم في (إذا) و مستمر بما دل عليه الاستمرار فيها . و اختلفت جملتا جواب الشرط بين حال الإنعام و مس الشر حيث جاءت الأولى فعلا ماضيا " إيذانا بأن المعرض مسيء لمجرد الإعراض"[٨٦] ، و الثانية جملة اسمية مفتتحة بلفظ (ذو) للدلالة " على الملازمة و الدوام "[٨٧] ، فإعراضهم المتكرر عند الإنعام محقق بدلالة الماضي ، ودعاؤهم المتكرر عند مس الشر دائم بدلالة (ذو) .

و في سورة الشورى موطن يلتقي مع آية الروم السابق ذكرها في الفرح حال

---

(٨٢) انظر المصدر السابق ج ٩ ص ٩٥

(٨٣) الزركشي ج ٤ ص ٢٠١

(٨٤) المصدر السابق

(٨٥) انظر ص ٢ من هذا البحث

(٨٦) البقاعي ج ١٧ ص ٢٢١

(٨٧) المصدر السابق ص ٢٢٢ .

النعمة و القنوط حال إصابة السيئة ، يقول تعالى مسليا رسوله صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه [٨٨] ، لأنه مبلغ لهم و ليس حفيظا عليهم ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ و إنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها و إن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾{٤٨} ، فوجه تعلق جملة ﴿ و إنا إذا أذقنا ...﴾ بما قبلها هو الغرور الذي أصاب هؤلاء المكذبين لرسول الله صلى الله عليه و سلم حين " وجدوا في الدنيا سعادة و كرامة . و الفوز بمطالب الدنيا يفيد الغرور و الفجور و التكبر و عدم الانقياد للحق فقال ﴿ و إنا إذا أذقنا ...﴾ "[٨٩]، فمن شأن هؤلاء حال حصول أقل قدر من النعمة – بما دل عليه فعل الذوق – الفرح بها و الغرور بسببها . فإذا أذاقهم الله تعالى منه رحمة كثيرة واسعة من الغنى و الصحة و سعة العيش – بما دلت عليه (إذا) – يبطرون بسببها و يتعاظم كبرهم ، و إن أصابهم نادرا شيء قليل من السيئات – بما دلت عليه (إن) و تنكير سيئة[٩٠] و صيغة الفعل المضارع[٩١]– بسبب ما قدموا من أعمال سيئة ؛ يكفرون و يجحدون نعمة ربهم . ومن هنا أعقبت الآيات بقوله تعالى ﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ﴾{ ٤٩} ، فالغرض من هذا التعقيب تحذير الإنسان من الاغترار بما ملكه من المال والجاه وحثه على الحرص على المزيد من الطاعة إذا علم أن الكل ملك لله ، و ما

---

(٨٨) انظر الرازي ج ٢٧ ص ١٨٣ ، ابن عطية ج ١٤ ص ٢٣٤ ، أبو حيان ج ٧ ص ٥٠٢ ، البقاعي ج ١٧ ص ٣٤٨ ، الطاهر ج ٢٥ ص ١٣٣

(٨٩) الرازي ج ٢٧ ص ١٨٤

(٩٠) انظر شروح التلخيص ج ٢ ص ٤٢

(٩١) انظر البقاعي ج ١٧ ص ٣٥٠ ، حاشية الشهاب ج٧ ص ٤٢٨ ، الألوسي ج ٢٥ ص ٥٣ في دلالة المضارع على التقليل

تحقق له من الخيرات فبإنعام من الله و فضله [٩٢] .

و مـــع اخـــتلاف المفسرين في المراد بالإنسان في الآية " فمنهم من حملها على خـــصوص الإنـــسان الكافر بالله مثل الزمخشري و القرطبي و الطيبي ، و منهم من حملها علـــى ما يعم أصناف الناس مثل الطبري و البغوي و النسفي و ابن كثير ، و منهم من حملها على إرادة المعنيين على أن أولهما هو المقصود و الثاني مندرج بالتبع ، و هذه طريقة البيـــضاوي و صـــاحب الكـــشف ، و منهم من عكس و هي طريقـــة الكواشـــي في تلخيـــصه "[٩٣] ، فلعـــل الأقرب للمعنى المراد أن الإنسان هنا الكافر ، و ذلك لإجماع المفسرين على أن الإسلام يمنع من هذا الكفران و التخلق بأخلاقه يهذب الجبلة الإنسانية التي خلق الإنسان عليها .

و هناك موضع في القرآن اختلف المفسرون في دلالة(إذا) فيه على الشرط وهو قوله تعالى حاكيا عن الكفار مقولتهم حالي السراء و الضراء ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه و نعمه فيقول ربي أكرمن و أما إذا ما ابتلاه فتاوى قاضيخانـــدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ﴾ {الفجر ١٥ – ١٦}، فقد ذهب أبو السعود[٩٤]، والبيضـــــاوي و الشهاب[٩٥] ، و الألوسي[٩٦] ، و الطاهر[٩٧] إلى أن الشرط مستفاد

(٩٢) انظر الرازي ج ٢٧ ص ١٨٤ ، البقاعي ج ١٧ ص ٣٥٢ ، الألوسي ج ٢٥ ص ٥٣

(٩٣) الطاهر ج ٢٥ ص ١٣٤

(٩٤) انظر أبو السعود ج ٩ ص ١٥٦ ،

(٩٥) انظر حاشية الشهاب ج ٨ ص ٣٥٨ المتن و الهامش

(٩٦) انظر الألوسي ج ٣٠ ص ١٢٥

(٩٧) انظر الطاهر ج ٣٠ ص ٣٢٤

من (أما) بمعنى مهما يكن من شيء، و أن (إذا) ظرفيـــة . و نقل الشـــــهاب[٩٨] ، و الألوسي[٩٩] عن أبي البقاء أن إذا شرطية . و على كلا القولين يفهم أن الإنسان حال وجوده ما يسره فإنه يفرح به ظانا استحقاقه له ، وحال وجوده ما يسوؤه فإنه يضيق بذلك ذرعا ولا يلتفت إلى أصل الحكمة في الابتلاء . و لما كان هذا الظن منه في كلا الحالين غير صحيح ، فقد أجيب بـــ (كلا) الرادعة عن هذا القول فقال تعالى ﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم و لا تحاضون على طعام المسكين و تأكلون التراث أكلا لما و تحبون المال حبا جما ﴾ {١٧ – ٢٠}

وذهب عدد من المفسرين إلى أن المراد بالإنسان هنا هو الكافر[١٠٠]، لأن هذه مقولة كفار قريش، وأغلبهم على أن لفظ (كلا) ردع عن مقولته حالي السراء والضراء ، إشارة إلى أن الابتلاء بالنعمة ليس إكراما ، و الابتلاء بتقتير الرزق ليس إهانة، فالله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ، و يقدره على من يشاء ، ثم ذكر ما هو أسوأ من هذا القول ، وهو عدم إكرامهم اليتيم و الحض على طعام المسكين ، و التكالب على متاع الحياة ، و فيه توبيخ لهم. و في مجيء الآيات متوسطة بين ذكر تمرد الأمم الطاغيـــة و عقاب الله تعالى لهم و بين قيام الساعة ، تلويح بالعقاب لمن يتمادى في سوء القول والعمل المشار إليه فيها .

و قد صورت الآيات ديدن هذا الإنسان بعدة أمور :

---

(٩٨) انظر حاشية الشهاب ج ٨ ص ٣٥٩

(٩٩) انظر الألوسي ج ٣٠ ص ١٢٦

(١٠٠) انظر ابن عطية ج ١٦ ص ٢٩٧ ، أبو حيان ج ٨ ص ٤٦٥ ، أبو السعود ج ٩ ص ١٥٦ ، حاشية الشهاب ج ٨ ص ٣٥٨ ، الألوسي ج ٣٠ ص ١٢٥ ،الطاهر ج ٣٠ ص ٣٢٤

١– (إذا) بمـــا تفيده من العموم ، فكلما تحقق له نعمة تجدد القول بأنه تكريم لـــه، و كلما تحقق له تقتير تجدد القول منه بأنه إهانة له ، و بما تفيده من الاستمرار ، أي أن هذا شأنه دائما و مستمر.

٢– الفعـــل المـــضارع الذي يفيد التجـــدد و الاستمرار في قوله ﴿ فيقول ، فيقول ﴾

و قد توقف الرازي في آيتي الفجر عند مجيء (أما) الأولى بالفاء و الثانية بالواو، و ذكر في الجواب عن ذلك أن " رحمة الله سابقة على غضبه ، و ابتلاءه بالنعم سابق على ابتلائه بإنزال الآلام ، فالفاء تدل على كثرة ذلك القسم – يقصد الإكرام – و قبله الثاني[١٠١] على ما قال ﴿ و إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ " [١٠٢].

و بالـــتأمل في الآيـــات السابقة نجد أن إذاقة الرحمة و الإنعام أتت مسندة إلى ضـــمائر العظمـــة في حين أن إذاقة السيئات و الشر لم تسند إليها . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن ذلك تعليما للأدب مع الله تعالى [١٠٣].

و لابن قيم الجوزيـــــة قول جليل في هذا– في تفسيره لمعنى قوله صلى الله عليه و سلم : " والشر ليس إليك " – يقول : " إن النعيم والثواب من مقتضى رحمته ومغفرته وبره وكرمه ولذلك يضيف ذلك إلى نفسه . وأما العذاب والعقوبة فإنما هو من مخلوقاته، ولذلك لا يسمى بالمعاقب و المعذب بل يفرق بينهما فيجعل ذلك من أوصافه

---

(١٠١) يبدو أن في العبارة هنا تحريفا

(١٠٢) الرازي ج ٣١ ص ١٧١

(١٠٣) انظـــر على سبيل المثال أبو السعود ج ٥ ص ١٩١ في آية الإسراء ٨٣ ، البقاعي ج ١٥ ص ٩٥ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٢٢ ، الألوســـــي ج ٢١ ص ٤٣ في آية الروم ٣٦ ، البقاعي ج ١٧ ص ٢٢٢ ، الطاهر ج ٢٥ ص ١٥ في آية فصلت ٥١

وهذا من مفعولاته حتى في الآية الواحدة كقوله تعالى ﴿ نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم و أن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ {الحجر ٤٩ – ٥٠} ... فما كان من مقتضـى أسمائه وصفاته فإنه يدوم بدوامها ، و لا سيما إذا كان محبوبا له وهو غاية مطلوبة في نفسها ، وأما الشر الذي هو العذاب فلا يدخل في أسمائه و صفاته ، و إن دخل في مفعولاته لحكمة إذا حصلت زال و فني ، بخلاف الخير فإنه سبحانه دائم المعروف لا ينقطع معروفه أبدا. وهو قديم الإحسان أبدي الإحسان ، فلم يزل و لا يزال محسنا على الدوام ، وليس من موجب أسمائه و صفاته انه لا يزال معاقبا على الدوام غضبان على الدوام منتقما على الدوام ، فتأمل هذا الوجه تأمل فقيه في باب أسماء الله وصفاته يفتح لك بابا من أبواب معرفته و محبته"[١٠٤]. و هذا إن كان في باب الأسماء والصفات ، و لكنه يندرج ضمن ما نحن فيه من أنه تعالى لم يسند في الآيات موضع الدراسة إصابة السيئات أو الشر إليه .

و بالـتأمل أيـضا نجـد أن الإنسان في حال النعمة يفرح بها و يبطر بسببها ، فيعرض عن ذكر ربه ، و في حال النقمة يضجر و يضيق صدره و ييأس منكرا نعمة ربه، فـإذا ما ذهبنا نبحث عن السبب في البطر نجد أن الرازي يذكر في آية الشورى أنه عدم الإيمـان بـسعادات الآخرة ، فيقول : " و هذه طريقة من يضعف اعتقاده في سعادات الآخـرة " [١٠٥] . و ذكـر الألوسي أن ذلك التكبر و البطر عند حلول النعمة انشغال بالـنعمة عن المنعم [١٠٦] . و كذلك اليأس فهو يحزن لفقد هذه النعم دون أن يتأمل ما وراءهـا مـن الخير و لا يعرف من وهبه إياها حق المعرفة. و لذلك ختمت هذه الآيات

(١٠٤) شمس الدين الزرعي الدمشقي : أسماء الله الحسنى ص ٥٥ – ٥٦

(١٠٥) الرازي ج ٢٧ ص ١٨٤

(١٠٦) انظر الألوسي ج ٢٥ ص ٥ في آية فصلت ٥١

بذكر ملك الله تعالى للسماوات و الأرض و ما فيهن.

و قـد تفاوتت الآيات في مجيء الشرط بـ (إن) و (إذا) الظرفية التي تحمل معـنى الشرط . و كان الغالب أن تأتي (إذا) مع حصول الخير و الحسنات ، و (إن) مـع إصابة الشر و السيئات إلا ما خرج عن هذه العادة القرآنية لغرض بلاغي ، و قد أشير إلى ذلك في موضعه .

ووجـدت البقاعي يذكر في دلالة (إذا) مجيء الأمر من جهة متوقعة و (إن) من جهة غير متوقعة [١٠٧]. و لم أجد أحدا من النحويين أو المفسرين أشار إلى مثل هذا ، و لعله استفاد هذه الدلالة من معنى تحقق أو رجحان الوقوع في (إذا) و ندرة و احتمال الوقوع في (إن) .

و يلحظ في خواتيم الآيات هنا أو ما يعقبها نوع من المحاجة و الإقناع ، و دعوة للتأمل في ملكوت الله . و في بعض السياقات تحمل في طياتها تلويحا بالتهديد لا يصل إلى الدرجة التي سنلمحها في القسمين الآخرين . و لعل السبب – كما سبق أن ذكر – أن نكـرانهم لم يـتعد إلى الإشراك بالله أو التطاول على ربهم كما سيأتي في القسمين الثاني والثالث من آيات هذا البحث .

القسم الثاني :

و هناك حال أخرى للإنسان وهو أن تعقب السراء الضراء أو العكس ، و فيها

(١٠٧) انظـر على سبيل المثال ج ١٧ ص ٢٢١ آية فصلـت ٥١ ، ج ٩ ص ٨٣ آية يونس ١٢ ، ج ٩ ص ٢٤٢ آية هود ٩ ، ج ١٦ ص ٥٢٨ آية الزمر ٥٠ ، ج ٥ ص ٣٣٥ آية النساء ٧٨

نجد الإنسان يتجاوز في حال مجيء الرحمة بعد الضر الفرح إلى الاجتراء على الله بالكفر ، في حين أنه كان منكسرا داعيا الله وحده حال الضر ، وهذا يخالف حاله في القسم الأول .و لعـــل السبب في ذلك أن اللجوء إلى الله في الشدائد في أصل فطرة الإنسان ، و إلى هـــذا أشار بعض المفسرين(١٠٨)، في حين كان السبب في اليأس المذكور في القسم الأول هو انشغال الإنسان بالنعمة ، و تألمه و ضجره لفقدها . والملحوظ أن أغلب آيات هذا النوع ذكر فيها تعقيب الضر بالرحمة عدا موضع واحد هو آية هود .

ومن مواضع تعقيب الضراء بالسراء قوله تعالى ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنـــا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾{ يونس ٢١} ، فحصول النعمة بعد الضراء التي تركت أثرها فيهم(١٠٩) أدى بهم إلى التمرد و العصيان. و هذا خلق ذميم فيهم يصرفهم عن الإيمان ، و يذهب بفائدة نزول الآيات التي يقترحونها على الرسول عليه السلام ، وهو خلق المكر و اللجاج وعدم الإنصاف (١١٠)، فإنه خليق بمن يذيقه الله رحمته ، و يرفع عنه ضره أن يؤمن به ويشكره ، و لكن هؤلاء على العكس من ذلك يسارعون للتكذيب بالآيات، و المكر فيها، و يطلبون الغوائل، و من هنا لم يكن لإرسال الآيات فائدة . يقول في ذلك الرازي شارحا هذا الأمر ، و مفرقا بين الآية و قوله:﴿ و إذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أوقاعدا ...﴾ {١٢} قبل ذلك : " و اعلم أنه تعالى ذكر هذا المعنى بعينه فيما تقدم من

(١٠٨) انظر على سبيل المثال : البقاعي ج ٩ ص ٩٥ آية يونس ٢١ ، و ج ١٥ ص ٩٢ في تفسير آية الروم ٣٣

(١٠٩) انظر الزمخشري ج ٢ ص ٢٣١ ، أبو حيان ج ٥ ص ١٤٠ ، أبو السعود ج ٥ ص ١٣٣ ، الألوسي ج ١١ ص ٩٣

(١١٠) انظر الرازي ج ١٧ ص ٦٤ – ٦٥

هذه السورة وهو قوله تعالى﴿ و إذا مس ...﴾ إلا أنه تعالى زاد في هذه الآية التي نحن في تفسيرها دقيقة أخرى... هي أنهم يمكرون عند وجدان الرحمة و يطلبون الغوائل... فثبت بما ذكرنا أن عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر وطلب الغوائل " (١١١)

وقد عبرت الآية عن سرعة تقلبهم و كفرهم بعدة أمور " و ذلك بلفظ أذقنا كأنه قيل أول ذوق الرحمة قبل أن يداوم استطعامها مكر ، و بلفظ (من) المشعرة بابتداء الغاية : أي ينشيء المكر إثر كشف الضراء لا يمهل ذلك، و بلفظ (إذا) الفجائية الواقعة جوابا لــ(إذا) الشرطية أي وقت إذاقة الرحمة فاجأوا بالمكر"(١١٢). وفي إشارة البقاعي إلى امتداد زمن جواب الشرط بامتداد زمن فعله في قوله : " و ذلك أنهم عامة إذا أكرموا بنعمة قابلوها بكفر ، جعلوا ظرفه على مقدار ظرف تلك النعمة ، بما أشار إليه التعبير بإذا "(١١٣)، ما يبين شدة سوء أخلاقهم و فساد طباعهم حيث أنهم يزدادون في الكفر كلما ازدادوا إكراما بالنعمة ، وهم مستمرون على هذا الأمر أبدا كما قال : " لم يختلف حالهم في هذا قط "(١١٤) ، يقصد بهذا معنى الاستمرار الذي تدل عليه (إذا) بشمولها للأزمان الثلاثة : الماضي و الحاضر والمستقبل(١١٥). و لما كانت

---

(١١١) الرازي ج ١٧ ص ٦٥

(١١٢) أبو حيان ج ٥ ص ١٤٠ ، و انظر البقاعي ج ٩ ص ٩٦

(١١٣) البقاعي ج ٩ ص ٩٥

(١١٤) المصدر السابق

(١١٥) انظر الزركشي ج ٤ ص ١٩٧ ، السيوطي ج ١ ص ١٤٩

مفاجأهم المكر فيها معنى المسارعة قال تعالى﴿ قل الله أسرع مكرا ﴾ [(١١٦)] ثم هددهم بالعذاب بقوله ﴿ إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ ؛ لأن كتابة الأعمال تستعمل كناية عن وقوع جزائها كما صرح بذلك الشهاب[(١١٧)] ، وفي الالتفات إلى خطابهم تشديد في التوبيخ لهم [(١١٨)] .

والناس هنا مقصود بهم الكفار كما ذهب أغلب المفسرين[(١١٩)]. و ذهب ابن عطية و أبو حيان إلى أنها تتناول العاصين[(١٢٠)]. ورد هذا القول الشهاب[(١٢١)]، والألوسي[(١٢٢)]؛ لأن ذكر المكر في آيات الله ينافيه ويلائم حال الكفار. وفي مجيء الشرط بـــ (إذا) دلالة على سعة رحمة الله تعالى بهؤلاء وتحقق إذاقته لهم الرحمة بعد إصابتهم بالضر في أدنى درجاته بما عبر عنه فعل المس.

و في سورة هود موطن لتعقيب إحدى الحالين بالأخرى ، يقول تعالى﴿ و لئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ، و لئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا و عملوا الصالحات

---

(١١٦) انظـــر الزمخـــشري ج ٢ ص ٢٣١ ، أبـــو حيان ج ٥ ص ١٤٠ ، البقاعي ج ٩ ص ٩٦ ، حاشية الشهاب ج ٥ ص ١٧ المتن و الهامش ، الطاهر ج ١١ ص ١٣٣

(١١٧) انظر حاشية الشهاب ج ٥ ص ١٧

(١١٨) انظر أبو السعود ج ٥ ص ١٣٣

(١١٩) انظر ابن جرير : جامع البيان في تفسير القرآن ج ١١ ص ٧٠ ، الزمخسري ج ٢ ص ٢٣١ ، الرازي ج ١٧ ص ٦٤ ، البقاعي ج ٩ ص ٩٥ ، أبو السعود ج ٥ ص ١٣٣ ، البيضاوي و الشهاب ج ٥ ص ١٧ ، الألوسي ج ١١ ص ٩٣ ، الطاهر ج ١١ ص ١٣٢

(١٢٠) انظر ابن عطية ج ٩ ص ٢٣ ، أبو حيان ج ٥ ١٤٠

(١٢١) انظر حاشية الشهاب ج ٥ ص ١٧

(١٢٢) انظر الألوسي ج ١١ ص ٩٣

أولئك لهم مغفرة و أجر كبير ﴾ { ٩- ١١} ، فالإنسان هنا – سواء كان المراد الكافر[١٢٣] ، أو الجنس المستثنى منه المؤمنون [١٢٤] مما يعود بدلالته إلى الكافر – منشغل ومستغرق في التلذذ بأدنى قدر من النعمة يحصل له بما عبّر عنه فعل الذوق ، حتى إذا نزعت منه – مع حبه الشديد لها وحرصه عليها[١٢٥]- فإنه ييأس ويقنط من عودها ويكفر ويجحد معطيها فلا يشكره بل يظهر عبارات السخط والضجر[١٢٦]. وفي هذا الجحود والتسخط جراءة على الله ، وسوء أدب مع المتفضل بالنعم لا يليق بجلاله ، فهو مالك الملك ، وبيده خزائن السماوات والأرض ، وله أن يعطي وله أن يمنع .

ثم يذكر القرآن الحال المقابلة وهي حصول النعمة بعد الضر ، ففي حال ذوق الإنسان أقل قدر منها بعد أن مسه أقل الضرر بطر وجهل بقوله : ذهب السيئات عنِّي[١٢٧] ، وتبجح وتفاخر[١٢٨] ، وفي الإشارة إلى مبادرته بالتمرد والعصيان حال تحقق القليل من الخير له ، بعد أن أصابه الضر أدنى إصابة[١٢٩] ؛ دليل جهله بحقائق الأشياء ،

(١٢٣) انظر ابن جرير ج ١٢ ص ٦ ، الرازي ج ١٧ ص ١٩٠ ، ١٩١ ، أبو السعود ج٤ ص١٩٠ ، حاشية الشهاب ج٥ ص٧٨ المتن والهامش ، الألوسي ج١٢ ص١٥ ، الطاهر ج١٢ ص١٢.

(١٢٤) انظر الزمخشري ج٢ ص٦٠ ، ابن عطية ج٩ ص١١٢ ، الرازي ج١٧ ص١٩٠ ، أبو حيان ج٥ ص٢٠٦ ، البقاعي ج٩ ص٢٤٢-٢٤٣ ، أبو السعود ج٤ ص١٩٠ ، حاشية الشهاب ج٥ ص٧٨ المتن والهامش.

(١٢٥) انظر أبو السعود ج٤ ص١٩٠ ، والألوسي ج١٢ ص١٥.

(١٢٦) انظر الطاهر ج١٢ ص١٣.

(١٢٧) انظر ابن عطية ج٩ ص١١٢.

(١٢٨) انظر الطاهر ج١٢ ص١٤.

(١٢٩) انظر أبو السعود ج٤ ص١٩٠ ، حاشية الشهاب ج٥ ص٧٨ المتن والهامش ، الألوسي ج١٢ ص١٥

وظنه أن الفوز بسعادات الدنيا هو غاية السعادة ناسياً أن السعادة الأخروية هي السعادة الحقة. وتأكيد الجملتين (لئن أذقنا... ولئن أذقناه...) باللام الموطئة للقسم، و تأكيد الجوابين بحرف التوكيد (إنّ) في الأولى ونون التوكيد في الثانية " لقصد تحقيق مضمونها وأنه حقيقة ثابتة لا مبالغة فيها ولا تغليب"(١٣٠)

وتتجلى غلبة الرحمة على العذاب في صياغة الآيات بعدة أمور أشار إلى شيء منها البيضاوي بقوله : "وفي لفظ الإذاقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء ؛ لأن الذوق إدراك الطعم ، والمس مبدأ الوصول "(١٣١) ، فالذوق و المس أول درجات الإدراك ، مع اختلاف طبيعته كما سيأتي ، و قريب منه قول الألوسي : " وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما، وكونهما مما يُرغب فيه ، وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها في أدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها ، وإسناد الأول إلى الله عز وجل دون الثاني ما لا يخفى من الجزالة والدلالة على أن مراده تعالى إنما هو إيصال الخير المرغوب فيه ، على أحسن ما يكون ، وأنه إنما يريد بعباده اليسر دون العسر ، وإنما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلاً يسيراً كأنما يلاصق البشرة من غير تأثير . وأما نزع الرحمة فإنما صدر عنه بقضية الحكمة الداعية إلى ذلك وهي كفرانهم بها كما سبق "(١٣٢). فقد تنبه من خلال دلالة الذوق على إدراك المطعومات المحببة إلى الحكمة من إسناد الرحمة و النعماء له ، وهي إرادة الخير لعباده و التيسير عليهم . ويتأيد هذا بدلالة مس الضر على مجرد الملاصقة دون كبير تأثير ، مع كونه بمقتضى حكمته

(١٣٠) الطاهر ج١٢ ص١٣.

(١٣١) البضاوي بهامش حاشية الشهاب ج٥ ص٧٨.

(١٣٢) أبو السعود ج٤ ص١٩٠ ، وانظر في الإشارة إلى بعض ذلك الألوسي ج١٢ ص١٥.

و استحقاقهم لهذا . و تتأكد غلبة رحمته تعالى بعباده بإسناد ذوق الرحمة إلى الله عز وجل دون مس الضر .

وفي مقابل ذلك تبين الآيات أيضاً بصياغتها شدة جحود الكافر لربه ، فهو مع تمتعه بالنعمة زمناً بما دلت عليه (ثم) إلا أنه ييأس بمجرد نزعها منه ، وذلك لقلة ثقته بالله(١٣٣)، وهو في حال ذوقه النعمة بعد الضر يبطر ، ويتمرد على ربه المنعم عليه . وهذا باستثناء الذين آمنوا فإنهم يصبرون على البلاء ويشكرون النعماء. ولذلك ، وحثاً على مثل صنيعهم(١٣٤) كان جزاؤهم مغفرة عظيمة لذنوبهم ، وأجراً كبيراً لأعمالهم.

وقد جاءت إذاقة الرحمة والنعماء بأداة الشرط (إن) – على غير عادة القرآن – التي تستعمل في الأمر النادر الوقوع. ولم أجد أحداً من المفسرين علق على هذا باستثناء البقاعي الذي رأى في دلالتها مجيء الرحمة "من جهة لا يرجوها " (١٣٥) . وقد يكون السبب في ذلك هو أن ندرة ذوق الرحمة ملائمة لحال الكفار المذكورين في هذا السياق ، فهم الذين يعرضون عن الإيمان وينكرون البعث ويستهزئون بوعيد الله لهم مستعجلين بالعذاب(١٣٦). ولعل مما يؤيد هذا الرأي قول الرازي :" اعلم أنه تعالى لما ذكر أن عذاب أولئك الكفار وإن تأخر ، إلا أنه لابد وأن يحيق بهم ، ذكر بعده ما يدل على كفرهم ، وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب فقال:﴿ ولئن أذقنا الإنسان ﴾ "(١٣٧).

---

(١٣٣) انظر البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج٥ ص ٧٧ ، أبو السعود ج٤ ص١٩٠ ، الألوسي ج١٢ ص١٥.

(١٣٤) انظر ابن عطية ج١٩ ص١١٣.

(١٣٥) ج ٩ ص٢٤٢.

(١٣٦) انظر الآيات ٣– ٨.

(١٣٧) الرازي ج١٧ ص١٩٠ ، وانظر أبو حيان ج٥ ص٢٠٦.

ومع تشابه آية هود هنا مع قوله تعالى في آية يونس:﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا...الآية﴾ في الدلالة العامة ، إلا أن ثمة فروقاً نبّه بعض المفسرين إلى شيء منها . أول هذه الفروق ورود الإذاقة في آية يونس بـــ (إذا) الدالة على تحقق الوقوع ، و ورودها في آية هود بـــ (إن) الدالة على النادر والمشكوك فيه، وثاني هذه الفروق ما رصده البقاعي من سبق الضراء بـــ (مِن) في قوله : ﴿ من بعد ضراء ﴾ {٢١}، في حين أتت بترع الخافض في آية هود ، يقول في الأولى " ولما كان وجود النعمة لا يستغرق الزمان الذي يتعقب النقمة أدخل الجار فقال ﴿ من بعد ضراء...﴾ فإذا أتتهم رحمة من بعد نقمة لم يعدوها آية دالة على من أرسلها لهم ، لما كانوا فيه من عادة النقمة"[١٣٨] ، فالآية تدل على أنهم ظلوا في نقمة من غير نعمة زمنا ، ثم جاءت النعمة ، و يقول في آية هود : " فقال دالا على اتصال زمن الضر بالقول بترع الخافض من الظرف ﴿ بعد ضراء ﴾ أي فقر شديد مضر ببدنه ...﴿ ليقولـــن ﴾ مع قرب عهده بالضراء خفـــة و طيشا ﴿ ذهـــب الســـــيئات عني ﴾ أي كل ما يســـوؤني ﴿ عني ﴾ " [١٣٩]. و لعل هذين الفرقين يبينان اختلافا بين عمل الفريقين المذكورين ، فالفريق المذكور في آية يونس سارع إلى المكر في آيات الله عند وجدان النعمة ، مع كونه كان في زمن الضر زمنا ، في حين أن فريق آية هود الذي حصلت له الرحمة عقب الضر مباشرة تبجح و تفاخر ، و فرح فرح بطر بالنعمة ؛ و لذلك اختلف تعقيبا الآيتين فجاء في الأولى بذكر مثال لهذا المكر و أوعد أصحابه بالعقاب في قوله تعالى ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر...﴾ {٢٢} ، و لم يذكر في الثانية جزاءهم ، و إنما ذكر جزاء المؤمنين الذين لم يقعوا فيما وقع فيه أولئـــك في قوله تعالى ﴿ إلا الذين صبروا

---

(١٣٨) البقاعي ج ٩ ص ٩٦

(١٣٩) المصدر السابق ص ٢٤٣

و عملوا الصالحات ... ﴾ {١١} و لعل في هذا إعراض عنهم تقليلا لشأنهم ، و تعريض بأنهم سينالون عقوبة و ليس ثوابا مثل المؤمنين .

ويذكر تعالى موقفا آخر للناس عند مس الضر ، وهو الدعاء إلى الله والإنابة إليه فيقول:﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾{الروم ٣٣ – ٣٤}. و أول ما يستوقف النظر في هذه الآية الدعاء ، فهل الدعاء هنا ينافي اليأس في آية هود السابقة﴿ ولئن أذقنا الإنســـان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ﴾ {٩}، و قوله ﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾ {الروم٣٦} ؟ و الجواب : أنه لا ينافيه ، و قد سبق أن ذكر أن الدعاء في أمثال هذه المواقف ليس ناشئا من اعتراف بالفضل لله تعالى و لا تذللا بين يديه ، و إنما لتألمهم لفقد النعمة التي كانوا مستغرقين فيها سارعوا إلى الدعاء برجوعها إليهم (١٤٠) .

و لعل الموقف يختلف هنا ، وهو إطالة الإخبار بالدعاء بإضافة الحال ﴿ منيبين إليه ﴾ فهو لم يقل أنابوا أو رجعوا ، و إنما ذكر الإنابة التي تشير إلى انكسار المرء عند حلول النقمة ، مما يدعوه إلى الإقبال على الله ، و الرجـــو ع إليه بالتوبة (١٤١) ، و قيل : " راجعين إلى ما أمر به غير خارجين عن شيء من أمره "(١٤٢)، و هذا لا يكون غالبا إلا مع طول زمن الضر ، فكأن الآية تتحدث عن الأصل في الفطرة وهو الرجوع إلى الله في

(١٤٠) انظر ص ١٢ من هذا البحث في آية فصلت

(١٤١) انظر ابن منظور ج ١ ص ٧٧٥

(١٤٢) نفس المصدر ، و انظر أبو حيان ج ٧ ص ١٦٨ ، أبو السعود ج ٧ ص ٦١ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٢٢ ، الألوسي ج ٢١ ص ٤٢ ، الطاهر ج ٢١ ص ٩٦

الشدائد[١٤٣]. و يتجلى البطر و التمرد في مفاجأهم الإشراك بالله – بدلالة إذا الفجائية[١٤٤] – مع حصول أقل قدر من النعمة بما عبر عنه فعل الذوق [١٤٥]، و تنكير لفظ (رحمة)[١٤٦] بعد أن مكثوا في الضر زمنا بما عبرت عنه (ثم) [١٤٧]، في حين أهم توجهوا إلى الله بالدعاء مع إصابتهم بأدنى درجات الضر وأقله بما عبر عنه فعل (المس) وتنكير (ضر)[١٤٨]. هذا على اعتبار كون (ثم) للتراخي الزمني . أما في حال كونها لمعنى استبعاد الخلاص كما ذهب البقاعي[١٤٩] ، فإن جحودهم يبدو أكثر وضوحا ما بين الإنابة إلى الله مستبعدين خلاصهم من هذا الضر، ثم شدة إسراعهم في كفران إحسانه . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن (ثم) تفيد التراخي الرتبي و لم يبينوا وجه الدلالة [١٥٠] . و ذهب الطاهر في توضيح ذلك إلى أن " إشراكهم بالله بعد الدعاء

---

(١٤٣) نقل البقاعي ج ١٥ ص ٩٢ عن الرازي " في اللوامع في أواخر العنكبوت : هذا دليل على أن معرفة الرب في فطرة كل إنسان و أنهم إن غفلوا في السراء فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضراء " ، وانظر ج ١١ ص ١٨٠ في تفسير آية النحل ٥٣

(١٤٤) انظر ابن عطية ج ١٢ ص ٢٦٠ ، أبو حيان ج ٧ ص ١٩٦ ، البقاعي ج ١٥ ص ٩٢ ، أبو السعود ج٧ ص ٦١ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٢٢ المتن و الهامش ، الألوسي ج ٢١ ص ٤٢ ، الطاهر ج ٢١ ص ٩٨ .

(١٤٥) انظر الرازي ج ٢٥ ص ١٢١

(١٤٦) انظر حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٢٢

(١٤٧) انظر حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٢٢ ، الألوسي ج ٢١ ص ٤٢

(١٤٨) انظر حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٢٢

(١٤٩) انظر البقاعي ج ١٥ ص ٩٢

(١٥٠) انظر حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٢٢ ، الألوسي ج ٢١ ص ٤٢

والإنابة وحصول رحمته أعجب من إشراكهم السابق، ففي التراخي الرتبي معنى التعجيب من تجدد إشراكهم"[١٥١]. و التأمل المتأني لدلالة التراخي قد يرى فيه – كما ذهب الطاهر نفسه في آية النحل[١٥٢]– إشارة إلى أن مفاجأتهم الإشراك بعد الإنعام أعجب من توجههم إلى ربهم بالدعاء ساعة الشدة لأنهم ﴿ من الذين فرقوا دينهم و كانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ { ٣٢ }

و لما كان هذا الأمر مما يبغضه الله تعالى ، لأن فيه تجاوزا و تعديا على حقه سبحانه جاء جزاؤهم تهديدا بقوله ﴿ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ وفي الآية من علامات السخط و الغضب ما لا يخفى ، فقد أمروا بالكفر على جهة التهديد والوعيد ، لأنه أمر للمرء بما يوجب التنكيل به[١٥٣]، و فيه دلالة على غاية السخط ثم التفت إليهم بقوله ﴿ فتمتعوا ﴾ و في المواجهة بالتهديد دلالة على كمال الغضب[١٥٤] ، مع عدم الاعتداد بهم[١٥٥] . و ختمت الآية بقوله ﴿ فسوف تعلمون ﴾ و المراد يعلمون عاقبة إشراكهم بالله و تمردهم على الحق[١٥٦]وهي العقوبة ، و فيه من التخويف ما فيه . وقد عبرت الفاءات في قوله ﴿ فتمتعوا ﴾ و﴿ فسوف ﴾ عن أن الأمر على جهة التهديد

---

(١٥١) الطاهر ج ٢١ ص ٩٨

(١٥٢) انظر الطاهرج ١٤ ص ١٧٨

(١٥٣) انظر د. بسيوني فيود : علم المعاني ج ٢ ص ٨٩

(١٥٤) انظر البقاعي ج ١٥ ص ٩٣

(١٥٥) انظر أبو السعود ج ٧ ص ١٩٠ الألوسي ج ٢٣ ص ٨٥ آية الصافات ٣٨

(١٥٦) انظر الزمخشري ج ٣ ص ٢٢٢ ، البقاعي ج ١٥ ص ٩٣ ، أبو السعود ج ٧ ص ٦١ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٢٢ المتن و الهامش ،الألوسي ج ٢١ ص ٤٢ ، الطاهر ج ٢١ ص ٩٨

ناتج عن كفرهم بما آتاهم الله تعالى من الآيات الدالة على وحدانيته ، وأن حسابهم المترتب على علمهم بما في صحائف أعمالهم من الكفر ناتج عن تمتعهم به في الدنيا.ولفظ (التمتع) يفيد الانتفاع بالشيء مدة من الزمان[١٥٧] ، وفيه إشارة إلى أن تمتعهم بالدنيا زائل مع ما في لفظ متاع من دلالته على حقارة شأنه كما ذكر البقاعي[١٥٨].

و في سورة الزمر موطن يشابه آية الروم السابقة في الإنابة إلى الله حال مس الضر والإشراك حال وجدان النعمة ، يقول تعالى :﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار﴾ { ٨ } ، فهذا الإنسان المراد به الكافر غالبا[١٥٩] إذا مسه ضر قليل بما دل عليه تنكير لفظ (ضر)[١٦٠] سارع إلى دعاء ربه المحسن إليه راجعا إليه وحده ، فإذا ما أعقب هذا الضر– بعد استبعاد كشفه[١٦١] أو بعد مكوثه فيه زمنا بدلالة ثم – بنعمة منه ابتداء بالفضل ، لأن معنى خوَّله " ملّكه وحكّمه فيها ابتداء لا مجازاة "[١٦٢]؛ كان في مدة النعمة معرضا عن شكر ربه ، تاركا دعاءه الذي صرفه إليه مدة زمن الضر[١٦٣] ، مضيفا إلى ذلك الإشـــــراك بالله تعالى ،

(١٥٧) انظر ابن منظور : لسان العرب ج ٨ ص ٣٣٢ و ما بعدها ، مادة (متع)

(١٥٨) انظر البقاعي ج ٨ ص ١٩٢ ، ج ٢١ ص ١٨٥

(١٥٩) انظر الزمخشري ج ٣ ص ٣٨٩ ، ابن عطية ج ١٤ ص ٦٥ ، الرازي ج ٢٦ ص ٢٤٨ ، أبو حيان ج ٧ ص ٤٠١ ، حاشـــية الشهاب ج ٧ ص ٣٣٠ المتن و الهامش ، الألوسي ج ٢٣ ص ٢٤٤ ، الطاهر ج ٢٣ ص ٣٤٢ .

(١٦٠) انظر البقاعي ج ١٦ ص ٤٦٢

(١٦١) انظر البقاعي ج ١٦ ص ٤٦٢

(١٦٢) ابن عطية ج ١٤ ص ٦٥ ، و انظر البقاعي ج ١٦ ص ٤٦٣

(١٦٣) انظر البقاعي ج ١٦ ص ٤٦٣

وجعل أنداد له مما نتج عنه حصول الضلال – عند من قرأها بفتح الياء – أو الإضلال – عند من قرأها بضمها (١٦٤) –

و لما كان هذا التمادي في الجحود الواصل إلى حد التمرد باتخاذ الشركاء لله موجبا لكمال الغضب الإلهي فقد توعده سبحانه بقوله ﴿ تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾ فالأمر بالتمتع بالكفر أمر تهديد ووعيد(١٦٥)؛ لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء(١٦٦). و في جعل التمتع بالكفر إيماء إلى أنه لا تمتع لهم بغيره ، و في إضافة كلمة ﴿ قليلا ﴾ تأكيد على أنه متاع الدنيا الذي لا بقاء له (١٦٧). و في هذا إقناط للكافر(١٦٨) جاء الاستئناف البياني تعليلا له١٦٩ في قوله ﴿ إنك من أصحاب النار ﴾ أي الملازمين لها (١٧٠). و لعل في ذكر الحال المقابل لهذا الجحود و الشرك في قوله تعالى

(١٦٤) انظر الزمخشري ج ٣ ص ٣٨٩ ، ابن عطية ج ١٤ ص ٦٦ ، الرازي ج ٢٦ ص ٢٤٩ ، أبو حيان ج ٧ ص ٤٠١ ، البقاعي ج ١٦ ص ٤٦٤ ، أبو السعود ج ٧ ص ٢٤٤ ، البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٣٠ ، الألوسي ج ٢٣ ص ٢٤٥ ، الطاهر ج ٢٣ ص ٣٤٤ .

(١٦٥) انظر ابن عطية ج ١٤ ص ٦٦ ، الرازي ج ٢٦ ص ٢٤٩ ، البقاعي ج ١٦ ص ٤٦٥ ، أبو السعود ج ٧ ص ٢٤٥ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٣٠ المتن و الهامش ، الألوسي ج ٢٣ ص ٢٤٥ ، الطاهر ج ٢٣ ص ٣٤٤

(١٦٦) انظر حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٣٠

(١٦٧) حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٣٠

(١٦٨) انظر أبو السعود ج ٧ ص ٤٤٥ ، الألوسي ج ٢٣ ص ٢٤٥

(١٦٩) انظر البقاعي ج ١٦ ص ٤٦٥ ، أبو السعود ج ٧ ص ٢٤٥ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٣٠ المتن و الهامش ، الألوسي ج ٢٣ ص ٢٤٥ ، و أشار الطاهر إشارة خفية إلى معنى التعليل ج ٢٣ ص ٣٤٤

(١٧٠) انظر ابن عطية ج ١٤ ص ٦٦ ، أبو حيان ج ٧ ص ٤٠٢ ، البقاعي ج ١٦ ص ٤٦٥ ، أبو السعود ج ٧ ص ٢٤٥ ، الألوسي ج ٢٣ ص ٢٤٥ ، الطاهر ج ٢٣ ص ٣٤٥

﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا و قائما يحذر الآخرة و يرجو رحمة ربه ... ﴾ عقب هذه الآية ؛ مزيدا من تبشيع صورة هذا المعرض المتمادي في التمرد بإشراكه بربه المحسن إليه بالنعم ، بعد طول مس الضر و استبعاد رفعه ، و تحسيرا له على ما ضيعه من حقوق ربه، فالنعمة في أمثال هذه السياقات التي تعقب فيها النقمة لا تقف بالإنسان عند الانشغال بها، والإعراض عن ذكره تعالى ، و إنما تمتد إلى التعدي و التمــرد بالإشراك بالله تعالى، و كأن المرء يؤخذ بتبدل النقمة إلى نعمة فيظن ظنا جاهلا أنه استحقها بمكانته وعمله، فيتجاوز بالبطر و الأشر ، و النيل من حقوقه تعالى ، ليس فقط بالامتناع عن حق الشكر ، بل بالإخلال بحق التوحيد و العبادة لله وحده . ومن هنا جاء ختام الموضعين – آية الروم و آية الزمر – تهديدا و وعيدا . و قريب من هذا في موطن آخر من الزمر يقول تعالى﴿ فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ {٤٩}، فهذه الآيات تصف الكفار الذين يشمئزون من ذكر الله و يستبشرون بآلهتهم ، ثم يلجأون في الشدائد إلى من اشمأزوا من ذكره وهو الله تعالى دون آلهتهم ، و هذا تناقض بشع و جرأة على الله تعالى. ومن هنا عطف قوله ﴿ فإذا مس الإنسان ﴾ بالفاء إنكارا لصنيعهم و تعجبا من حالهم ، وفي ذلك يقول الزمخشري : " فإن قلت : من أي وجه وقعت مسببة – يقصد فإذا – والاشمئزاز من(١٧١) ذكر الله ليس بمقتض لالتجائهم إليه بل هو مقتض لصدوفهم عنه ، قلت : في هذا التسبيب لطف ، و بيانه أنك تقول : زيد مؤمن بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه، فهذا تسبيب ظاهر لا لبس فيه ، ثم تقول : زيد كافر بالله ، فإذا مسه ضر التجأ إليه، فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة ، كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه ، مقيم

(١٧١) في الكــتاب (عــن) و ذكــر الاشمئزاز متعلقا به حرف الجر (من) قبل ذلك بقليل وهو الأقرب للصواب

كفره مقام الإيمان ، و مجريه مجراه في جعله سببا في الالتجاء ، فأنت تحكي ما عكس فيه الكافر . ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام الإنكار و التعجب من فعله "(١٧٢) ، و مع أن أبا حيان لمس تكلفا في هذا الربط (١٧٣) ، أثنى ابن المنير – وهو المعروف بتحامله على الزمخشري – على كلام الزمخشري قائلا : " كلام جليل فافهمه "(١٧٤) . ومع أن عددا من المفسرين قد ذهب إلى أن المراد الإخبار " عن الجنس بما يفعله غالب أفراده" (١٧٥) مما يجعل دلالته غير منحصرة في الكافرين ، إلا أن قوله ﴿إنما أوتيته على علم﴾ بما فيه من تعاظمٍ مفرط ، و اغترارٍ بالله ، و عجزٍ ، و تمنٍ عليه تعالى(١٧٦) أليق بحال الكافر، و يؤيده قول الطاهر : " المراد بالإنسان كل مشرك فالتعريف تعريف الجنس ، والمراد جماعة من الناس ، وهم أهل الشرك فهو للاستغراق العرفي" (١٧٧) ، و يؤيده أيضا ما حملته الآية التالية من تهديد(١٧٨) لمشركي قريش في قوله تعالى﴿ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا و الذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا و ما هم بمعجزين ﴾ {٥٠ –٥١} ، بالإضافة إلى أن سياق الحديث قبل هذه الآية كان يتحدث عن الكفار الذين يشمئزون من ذكر الله و الذين لا

---

(١٧٢) الزمخشري ج ٣ ص ٤٠٢ – ٤٠٣ ، و انظر الرازي ج ٢٦ ص ٢٨٨ ، البقاعي ج ١٦ ص ٥٢٧، أبو السعود ج ٧ ص ٢٥٨ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٤٣ المتن و الهامش ، و الألوسي ج ٢٤ ص ١٢ ، الطاهر ج ٢٤ ص ٣٤ – ٣٥

(١٧٣) انظر أبو حيان ج ٧ ص ٤١٦

(١٧٤) ابن المنير : كتاب الإنصاف بهامش الكشاف ج ٣ ص ٤٠٢

(١٧٥) أبو السعود ج ٧ ص ٢٥٩ ، و انظر حاشية الشهاب ج ٧ ص ٣٤٣ المتن و الهامش ، الألوسي ج ٢٤ ص ١٢

(١٧٦) انظر ابن عطية ج ١٤ ص ٩٣ ، أبو حيان ج ٧ ص ٤١٥

(١٧٧) الطاهر ج٢٤ ص ٣٥

(١٧٨) انظر ابن عطية ج ١٤ ص ٩٣

يستطيعون الافتداء من عذاب يوم القيامة ، بل يحيق بهم جزاء استهزائهم و مكرهم بالله. ولعل الاستثناء منهم بقوله ﴿ أكثرهم ﴾ يشير إلى من اهتدى منهم و آمن بربه(١٧٩) .

و تتجلى سعة رحمة الله تعالى لأمثال هؤلاء الجاحدين من صياغة الآيات ، فهذا الإنسان إذا ما مسه أدنى قدر من الضر دعا ربه المحسن إليه،فإذا تفضل عليه بنعمة بعد طول مكوثه في الضر بما دلت عليه(ثم)(١٨٠) بطر وتكبر ونسب الفضل في حصول النعمة لنفسه ، فإذا تأملنا ما ذكر عن (إذا) من معنى الاستمرار و معنى العموم (١٨١) يتبين دوام رحمة الله تعالى بهذا العبد المصر على الجحود ، فهو يلجأ إلى الدعاء كلما مسه ضر ، و يتعاظم على ربه كلما خوله نعمة ، و يظل هذا شأنه أبدا بما جبل عليه من حب السلامة ونكران واهبها . وتظل عادة الله تعالى معه الإحسان بما عبرت عنه (إذا) من تحقق أقل قدر من الضر وهو المس ، مقابل تحقق تخويل النعمة بعده فضلا و كرما .

و يلفتنا هنا أن مجيء ذكر الدعاء و التخويل جاء مسندا إلى ضمير العظمة في قوله ﴿ دعانا ، خولناه ﴾ ، وفي أول السورة مسندا إلى لفظ الرب متصلا بضمير الغائب في قوله ﴿ دعا ربه ﴾ و ﴿ خوله ﴾ . أما الأولى التي بضمير الغائب فلأن السياق كله له، و أما الثانية التي بضمير العظمة فمع أن السياق أيضا للغائب ، إلا أن في هذا الالتفات بذكر ضمير العظمة إظهارا و تنويها بشأن من صرفوا دعاءهم إليه ، و خولهم نعمة منه ، و إبرازا لمدى ضعفهم و عجزهم عن جلب نفع لأنفسهم أو دفع ضر عنها ، و لمزيد من التعجيب من أمرهـــــم و تقبيح فعلهم ، بجعل الدعاء متوجهـــا لمن اشمأزوا من ذكره ،

(١٧٩) انظر البقاعي ج ١٦ ص ٥٣٠ .

(١٨٠) انظر البقاعي ج ١٦ ص ٥٢٨ .

(١٨١) انظر ص ٢، ٣ من هذا البحث.

و تخويل النعمة مسندا إليه ، ثم إتيانهم بالتكبر و النكران جوابا على ذلك .

و في سورة فصلت جاء قوله تعالى﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ {٤٩ – ٥٠} ، فالآيات تبين خلق الكافر تجاه ابتلاء الله تعالى بالشر على ندرته بما دلت عليه (إن) و كيف يغلب قلبه اليأس و يظهر القنوط على أحواله الظاهرة[١٨٢] ، ثم تذكر له حالا أخرى و هي حال ذوق النعمة بعد الضر الذي أصابه منه أدنى الدرجات بما دل عليه فعل المس ، فهو إذا ما ذاق أقل قدر من النعمة من أي جهة كانت نسي المنعم و بطر النعمة و تكبر على معطيها فذهب إلى أن ما حصل له حق استوجبه ، و كفر بالبعث ثم تطاو ل على ربه المحسن إليه بقوله ﴿ و لئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ فهو شاك في البعث – بما دلت (إن)[١٨٣]– مرجح لبطلانه ، و مع ذلك يرى أنه لو كان ثمت بعث فسيكون له عند ربه جزاءا بالغا الغاية في الإحسان بما دلت عليه صيغة المبالغة (الحسنى)[١٨٤].وتجابهم الآيات – بسبب سوء صنيعهم – بذكر جزائهم﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ و كأن الجزاء بما احتواه من مؤكدات نحو نون التوكيد الثقيلة في قوله:

(١٨٢) انظر الرازي ج ٢٧ ص ١٣٧ ، الزمخشري ج ٣ ص ٤٥٧ ، أبو حيان ج ٧ ص ٤٨٢ ، أبو السعود ج ٨ ص ١٨ ، جاشية الشهاب ج ٧ ص ٤٠٥ المتن و الهامش ، الألوسي ج ٢٥ ص ٤ ، الطاهر ج ٢٥ ص ١٠ .

(١٨٣) انظر الزمخشري ج ٣ ص ٤٥٧ ، الرازي ج ٢٧ ص ١٣٨ ، البقاعي ج ١٧ ص ٢١٩ ، أبو السعود ج ٨ ص ١٨ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ٤٠٥ المتن و الهامش ، الألوسي ج ٢٥ ص ٤ ، الطاهر ج ٢٥ ص ١٢ .

(١٨٤) انظر الرازي ج ٢٧ ص ١١٣٨ ، البقاعي ج ١٧ ص ٢١٩ ، الطاهر ج ٢٥ ص ١٢

﴿فلننبئن ، فلنذيقنهم﴾ والتصريح بذنبهم بالعدول عن الضمـــير إلى الموصـــول وصلته ﴿ الذين كفـــــروا ﴾ ؛ مقابلا لما احتواه قول قائلهم من توكيد ﴿ إن لي عنده للحـــسنى ﴾ [١٨٥]، وكأن الحق – سبحانه – الذي تكبروا و طغوا عليه يرد أيديهم في أفواههم بهاتين الجملتين﴿ فلننبئن... ولنذيقنهم...﴾ . وفي تعقيـــب الذنب في قول قائلهم﴿هذا لي...﴾ بالجزاء مقرونا بالفاء في قوله﴿ فلننبئن ﴾ إشارة إلى كفححهم مباشرة بالرد وهو التنبئة المقتضية لوقوع العذاب[١٨٦] ، لما في ذلك من تطاول و تكبر على من تخضع له الرقاب وتخر له الجباه . ومجيء ذوق الرحمة بـــ (إن) على خلاف عادة القرآن يشير – استدلالا بمثيلاتها في الخروج على العادة القرآنية في اســــــتعمال (إذا[١٨٧]) و(إن[١٨٨]) – إلى أن إذاقة الرحمة ينبغي أن تكون نادرة مع هذا الصنف ، أو لعلها تشير إلى أنها لشـــدة الضراء ومكوثه فيها زمنا بما دل عليه الجار في قوله: ﴿ من بعد ضراء ﴾ كما في سورة يونس بدت له و كأنها أمر نادر الوقوع .

و مجمل آيات القسم الثاني توضح طبيعة في الإنسان جبل عليها وهي الكبر والغرور بأدنى نعمة تطرأ عليه بعد الضر. و هذا راجع إلى " التوجه إلى طلب الملائم والنافع، و نسيان ما عسى أن يحل به من المؤلم و الضار ، فبذلك يأنس بالخير إذا حصل له فيزداد من السعي لتحصيله و يحسبه كالملازم الذاتي فلا يتدبر في معطيه حتى يشكره ، و يسأله المزيد تخضعا ، و ينسى ما عسى أن يطرأ عليه من الضر ، فلا يستعد لدفعه عن

(١٨٥) انظر الرازي ج ٢٧ ص ١٣٨

(١٨٦) انظر البقاعي ج ١٧ ص ٢٢٠

(١٨٧) انظر ص ٨ ، ١٣ من هذا البحث

(١٨٨) انظر ص ٩ ، ٢٠ – ٢١ من هذا البحث .

نفسه بسؤال الفاعل المختار أن يدفعه عنه و يعيذه منه"[١٨٩] ، بل يبطر و يتكبر ، فما يكاد ينفض عنه آثار الضر حتى يبادر إلى الكفر و الإشراك ، معرضا عن شكر ربه ناسبا الفضل في استحقاق الرحمة لذاته .

والآيات كسابقتها أسندت ذوق الرحمة لله تعالى ولم تسند وقوع الشر إليه تعليما للأدب معه[١٩٠]، ونبه البيضاوي في قوله تعالى﴿ و لئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته...﴾ {هود ١٠} إلى اختلاف فعلي ﴿ أذقناه ، مسته﴾ وشرح ذلك الشهاب قائلا: " لم يقل مسسناه بالإسناد إلى ضمير المتكلم كما في أذقنا للدلالة على أن مس الضر ليس مقصودا بالذات ، إنما وقع بالعرض ، بخلاف إذاقة النعماء كما أشار إليه المصنف في غير هذا المحل "[١٩١]، وهو قريب مما ذكره ابن قيم الجوزية في النص المذكور في نهاية القسم الأول .

و الملحوظ أيضا في آيات هذا القسم أن خواتيمها ، و ما يعقبها من الآيات فيه قدر من التهديد والوعيد أكبر مما في القسم الأول ، مما يشير إلى أن الذنب هنا أعظم وهو الاجتراء على الله بالكفر حين تبديله للضر بالنعمة ، وهذا انحراف عما يجب أن يكون مع المنعم سبحانه و تعالى ، و فيه دليل على غرور الإنسان بنفسه ، و عدم تدبره لمنشأ المنعم ، و تقديره لمانحها سبحانه حق قدره ، و عدم يقينه في قدرة الله سبحانه وتعالى على سلب النعمة كما كانت له القدرة على منحها .

و قد ذكرت الآيات تعقيب الضر بالرحمة في المواضع كلها ما عدا موضع واحد

(١٨٩) الطاهر ج ٢٥ ص ٩ – ١٠ .

(١٩٠) انظـــر على سبيل المثال أبو السعود ج ٥ ص ١٣٣ ، الألوسي ج ١١ ص ٩٣ آية يونس ، البقاعي ج ٩ ص ٢٤٣ آية هود ١٠ .

(١٩١) حاشية الشهاب ج ٥ ص ٧٧ .

في سورة هود الذي ذكر فيه نزع الرحمة في قوله ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها إنه ليئوس كفور ﴾ {٩}. و جاء إسناد ذوق الرحمة بعد مس الضر بإذا في المواضع كلها سوى آيتي هود في قوله ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور﴾{١٠ وفصلت} ﴿لئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة و لئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى... ﴾ {٥٠}. ومع تشابه السورتين في ذكر قصص الأمم الكافرة و تمردها على الله ، و مع تشابه موقف الإنسان من ابتلاء الله له بالرحمة بعد الضر ، فإن الملحوظ أن الجراءة على الله بدت أكثر في سورة فصلت . و فيها أنه ذاق رحمة قليلة بعد أن أمضى في الضر زمنا بما دل عليه قوله ﴿من بعد ضراء﴾ و هذا يشير إلى ما ذكر سابقا من أن حصول النعمة بعد الضر يورث بطرا و كبرا – بخلاف حصول كل منهما منفردا كما في آيات القسم الأول– فكأن الإنسان كلما طال زمن تنعمه بالصحة والمال والجاه ازداد إحساسا باستحقاقه له ، و تجاوز إلى التعدي على المنعم بها. وهذا يقوي أن المقصود بالإنسان الكافر ، لأن المؤمن يرى الخير من خلال المصائب لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله " إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا و من سخط فله السخط ".

القسم الثالث :

و هناك حال ثالثة للإنسان يتجلى فيها جحوده لربه ونكرانه لإحسان المنعم عليه ، و أغلب ما وقعت عليه في هذا النوع يصف الكافر الذي يلجأ إلى الله تعالى حين يقع في شدة و تنقطع به الأسباب، فإذا ما أنقذه الواحد الأحد عاد إلى إشراكه به غيره . و يقرر الله تعالى الكفار بهذه الحقيقة في قوله في سورة الأنعام ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما

تدعون إليه إن شاء و تنسون ما تشركون ﴾{٤٠ – ٤١} ، فهم في الشدائد و عظائم الأمور لا يدعون غيره – بما دل عليه تقديم المفعول من الاختصاص[١٩٢]– و يذهلون عن آلهتهم المزعومة، ومع ذلك فرحمته تسبق إليهم بما دل عليه حرف (الفاء) في ﴿فيكشف ﴾ من التعقيب والسرعة [١٩٣]، مع ما في ذكر الكشف من الدلالة على غشيان الشدة ، لأن الكشف " يدل على سرو الشيء عن الشيء كالثوب يسرى عن البدن" [١٩٤]، ويقول ابن منظور عن معناه هو "رفعك الشيء عما يواريه ويغطيه "[١٩٥]. وفي ذكر النسيان والغفلة ما يوحي بأن ولاء هؤلاء الكفار لأصنامهم باق و لكنهم غفلوا عنه قليلا ، ولم أجد من المفسرين الذين اطلعت على كتبهم من أشار إلى دلالة (إن) في قوله ﴿ إن أتاكم ﴾ و لعلها تشير إلى استبعادهم لوقوع هذه الأمور الشداد لشدة غفلتهم ، و فساد فطرهم . و قد تكون لمجرد الربط كما سبق أن ذكر [١٩٦] .

و لما كان إعراضهم عن الله تعالى في الرخاء بعد أن لجأوا إليه في الشدة أمرا فيه جرأة على الله ، فقد خوفهم و هددهم بقطع دابرهم مثلما وقع لمن قبلهم من الأمم السابقة ، حين عرضوا أنفسهم لعقوبة الله [١٩٧] بقسوة قلوبهم و تركهم اللجوء إلى الله في الشدائد فقال﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم

---

(١٩٢) انظر الزمخشري ج ٢ ص ١٨ ، ابن عطية ج ٦ ص ٥٠ ، الرازي ج ١٢ ص ٢٣٣ ، البقاعي ج ٧ ص ١٢٢ ، أبـــو السعود ج ٣ ص ١٣٢ ، حاشية الشهاب ج ٤ ص ٥٩ المتن و الهامش ، الألوسي ج ٧ ص ١٤٩ ، الطاهر ج ٧ ص ٢٢٤ .

(١٩٣) انظر أبو السعود ج ٣ ص ١٣٢

(١٩٤) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ج ٥ ص ١٨١

(١٩٥) ابن منظور : لسان العرب ج ٩ ص ٣٠٠

(١٩٦) انظر ص ٨ من هذا البحث

(١٩٧) انظر ابن عطية ج ٦ ص ٥٠ ، البقاعي ج ٧ ص ١١٣ ، الطاهر ج ٧ ص ٢٢٦ .

يضرعون فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابــر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ {٤٢– ٤٥}، فهذه الأمم التي كانت أقوى شكيمة أعرضت عن التضرع إلى الله حال البأساء و الضراء ، مع أن الشدائد تلين القلوب و تعيد الإنسان لربه ، فكان جزاؤهم عن هذا الإعراض و الترك أن الله تعالى يسر لهم سبل المسرات و موجبات السعادات بما عبرت عنه استعارة لفظ (أبواب) استدراجا لهم ، حتى ظنوا لسوء طباعهم أن هذا الفتح باستحقاقهم فكان عاقبته الأخذ بغتة . و في لفظ الأخذ من معاني الشدة و الإكراه ما لا يخفى .

و هناك موطن آخر في سورة الأنعام يقررهم فيه تعالى بسوء صنيعهم و جحدهم لنعمة المحسن إليهم ، يقول تعالى﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾{ ٦٣ – ٦٤} ، فهم حين يتعرضون للأهوال و الشدائد في البر البحر يجدون في الدعاء سرا و علانية و يأخذون على أنفسهم عهودا لله غليظة بالشكر عبر عنها التوكيد في (لنكونن) و اسم الفاعــل (الشاكرين) الدال على رسوخهم في الصفة [١٩٨]، وحين ينجيهم الله تعالى و يخلصهم مما هم فيه من الشدة بعد شكهم في تحقق هذه النجاة – بما دلت عليه (إن) في قولهم ﴿ لئن أنجانا ﴾ – لما رأوا من عظم الأهوال ؛ يعودون إلى شركهم بالله[١٩٩]. وفي عطف الإشراك على التنجية بــ(ثم) ما

---

(١٩٨) انظر البقاعي ج ٧ ص ١٤٢ ، أبو السعود ج ٣ ص ١٤٥ ، الألوسي ج ٧ ص ١٧٩

(١٩٩) انظر أبو حيان ج ٤ ص ١٥٤ ، حاشية الشهاب ج ٤ ص ٧٧ المتن و الهامش ، الألوســـــي ج ٧ ص ١٧٩

يفيد معنى التراخي الرتبي: أي أن إشراككم بالله تعالى بعد رؤية مظاهر قدرته أقبح من إشراككم قبل ذلك ، و في هذا يقول ابن عطية : وعطف بـــ (ثم) للمهلة التي تبين قبح فعلهم أي : بعد معرفتكم بهذا كله و تحققه أنتم تشركون " [٢٠٠] ، و يزيد البيان القرآني في التقبيح بإيراد جملة الخبر اسمية ، يقول في ذلك أبو حيان : " و لا يخفى ما في الجملة الاسمية من التقبيح عليهم إذ ووجهوا بقوله ﴿ ثم أنتم﴾"[٢٠١] ، و لعله يقصد بناء الخبر على ضمير المخاطب (أنتم) وما فيه من التوبيخ ، مع التقاء دلالة الجملة الاسمية من الثبات و الدوام ، مع دلالة الفعل المضارع في خبرها وهو التجدد و الاستمرار ، مما يشير إلى أنهم استمروا ثابتين في المستقبل على ما كانوا عليه في الماضي من الكفـــر[٢٠٢].

و قد نلمح مع التراخي الرتبي شيء من الاستبعاد: أي استبعاد حصول الشرك بعد تحقق معرفتهم بالله ، و يتأكد هذا الاستبعاد بحذف متعلق الشرك ، يقول الشهاب :" و لم يذكر متعلقه – أي الشرك – لتنزيله منزلة اللازم تنبيـــــها على استبعاد الشرك في نفسه " [٢٠٣]. و في تقرير الجواب بفعل القول (قل) إعلام بأن هذا الجواب مقرر عندهم فلا حاجة إلى انتظار نطقهم به [٢٠٤] ، و قيل إهانة لهم [٢٠٥] ، و قيل " ليكون هو

---

(٢٠٠) ابن عطية ج ٦ ص ٦٩ ، و انظر أبو حيان ج ٤ ص ١٥٥ ، البقاعـــي ج ٧ ص ١٤٣ ، الألوسي ج ٧ ص ١٨٠

(٢٠١) أبو حيان ج ٤ ص ١٥٥

(٢٠٢) انظر أبو حيان ج ٤ ص ١٥٥ ، الطاهر ج ٧ ص ٢٨٣

(٢٠٣) حاشية الشهاب ج ٤ ص ٧٧ ، و انظر الألوسي ج ٧ ص ١٨٠

(٢٠٤) انظـــر البقاعـــي ج ٧ ص ١٤٢ ، أبـــو السعود ج ٣ ص ١٣٥ ، حاشية الشهاب ج ٤ ص ٧٧ ، الألوسي ج ٧ ص ١٧٩ ، الطاهر ج ٧ ص ٢٨٢

(٢٠٥) انظر حاشية الشهاب ج ٤ ص ٧٧ ، الألوسي ج ٧ ص ١٧٩

– صلى الله عليه و سلم – أسبق إلى الخير و إلى الاعتراف بالحق " [٢٠٦]. و ذهب البيضاوي إلى أنه" إنما وضع تشركون موضع لا تشكرون تنبيها على أن من أشرك في عبادة الله سبحانه و تعالى فكأنه لم يعبده رأسا "[٢٠٧] ، و شرح هذا الشهاب قائلا:" لأن إشراكهم تضمن عدم صحة عبادتهم و شكرهم ، لأنه عبادة ، بل نفيها لعدم الاعتداد بها معه ، إذ التوحيد ملاك الأمر و أساس العبادة فوضعه موضعه توبيخا لهم لعدم الوفاء بالعهد "[٢٠٨] ، فالشكر شطر الإيمان فإذا فقد انتقض الإيمان ، ولذلك وضع (تشركون) بدل (لا تشكرون) ، مع ما فيه من التوبيخ على نقض العهد بالشكر ، والإتيان بالإشراك مكانه . و في قول البقاعي عن تحول الشكر شركا"مع ما فيه من الجناس لما كان ينبغي لهم من أنهم يشكرون "[٢٠٩] ؛ إشارة إلى أن حصول أدنى تحول في المقاصد يؤدي إلى الانحراف الموجب للغضب . و الآيات تبين شدة جحودهم حين نراهم حال وقوعهم في الشدة التي أذهلتهم عن النطق بما دل عليه قولهم ﴿ هذه ﴾[٢١٠] منقطعين إلى الله سبحانه ، متعلقين بأسباب النجاة منه تعالى بعد أن انقطعت بهم أسبابهم ، متعهدين له بالشكر بأوثق العهود ، ثم بعد نجاتهم من هذه الأهوال الشديدة يعود عهدهم بالشكر شركا بالله المنعم عليهم ! و لما في هذا الأمر من عظيم الجرم جاء عقيبه قوله تعالى ﴿ قل

---

(٢٠٦) أبو حيان ج ٤ ص ١٥٤

(٢٠٧) البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٤ ص ٧٧

(٢٠٨) حاشية الشهاب ج ٤ ص ٧٧

(٢٠٩) البقاعي ج ٧ ص ١٤٣

(٢١٠) انظر على سبيل المثال الطاهر : ج ٢٤ ص ٧١ في آية الزمر ٧١ ، ومواضع الحذف لضيق المقام في شروح التلخيص ج ١ ص ٢٧٧ ، ج ٢ ص ٢، ٣

هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا و يذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾ {الأنعام ٦٥}، وعيدا و تخويفا لمن أشرك بالله(٢١١) . و يلحظ أن أمثال هذا التخويف و الترهيب بإيقاع العقوبة جاء عقب أغلب آيات هذا القسم وهو التخلص من الشدة . و يبدو أن هذه المبالغة في التهديد بذكر قدرة الله تعالى على إيقاع العذاب بمن أشرك بعد أن دعاه وانقطع إليه ؛ تعود إلى أن الشرك في هذه الحال أقبح و أشنع منه في غيرها .

وواضح أن المقصود في آيتي الأنعام هو الكافر(٢١٢) ، و لعل قول الرازي في آية الأنعام ﴿ قل من ينجيكم ...﴾ أن عادة "أكثر الخلق ذلك إذا شاهدوا الأمر الهائل أخلصوا و إذا انتقلوا إلى الأمن و الرفاهية أشركوا به"(٢١٣) يقصد بها عادة أهل الشرك و ليس كل الخلق ،لأن الإيمان في فطرة الخلق و ليس أكثرهم مشركين كما توهم عبارته.

ومن المواضع القريبة من آيتي الأنعام قوله تعالى ﴿ و لما وقع عليهم الرجز قالوا

---

(٢١١) انظر ابن عطية ج ٦ ص ٧٠ ، الرازي ج ١٣ ص ٢٢ ، أبو حيان ج ٤ ص ١٥٥ ، البقاعي ج ٧ ص ١٤٣ ، أبو السعود ج ٣ ص ١٤٦ ، الألوسي ج ٧ ص ١٨٠ ، الطاهر ج ٧ ص ٢٨٣

(٢١٢) انظر ابن جرير ج ٧ ص ١٢١ ، الزمخشري ج ٢ ص ١٨ ، ابن عطية ج ٦ ص ٤٩ ، الرازي ج ١٢ ص ٢٢٢ ، أبو حيان ج ٤ ص ١٢٨ ، البقاعي ج ٧ ص ١٠٩ ، أبو السعود ج ٣ ص ١٣٢ ، حاشية الشهاب ج ٤ ص ٥٩ ٦٠ المتن و الهامش ، الألوسي ج ٧ ص ١٤٨ ، الطاهر ج ٧ ص ٢٢١ آية ٤٠ – ٤١ ، و انظر ابن جرير ج ٧ ص ١٤٠ ، ابن عطية ج ٦ ص ٦٨ ، أبو حيان ج ٤ ص ١٥٤ ، البقاعي ج ٧ ص ١٤١ ، أبو السعود ج ٣ ص ١٤٥ ، حاشية الشهاب ج ٤ ص ٧٧ المتن و الهامش ن الألوسي ج ٧ ص ١٧٩ ، الطاهر ج ٧ ص ٢٨٠ آية ٦٣ – ٦٤

(٢١٣) الرازي ج ١٣ ص ٢٢

يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك و لنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ {الأعراف ١٣٤-١٣٥} ، فهؤلاء لما وقع عليهم العذاب ، مع إساءتهم الأدب مع الله ورسوله بإسناد لفظ الرب لضمير المخاطب(ربك)[٢١٤] ، و بما يبدو من شكهم في قدرة الله تعالى و كرمه بكشف العذاب عنهم في استعمالهم أداة الشرط (إن)؛ يتولاهم الله برحمته فيعاجلهم بكشفه بدلالة فاء التعقيب ﴿ فيكشف﴾[٢١٥]، و لكنهم يقابلون هذه الرحمة بالمبادرة إلى النكث، ونقض تلك العهود الغليظة التي أخذوها على أنفسهم ، بما دلت عليه المفاجأة في قوله ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ ، يقول ابن عطية مشيرا إلى دلالة الآية على كفرهم وعدم صدق إيمانهم : " وألفاظ هذه الآية تعطي الفرق بين القبط و بين بني إسرائيل في رسالة موسى ، لأنه لو كان إيمانهم به على حد إيمان بني إسرائيل لما أرسلوا بني إسرائيل ولا فارقوا دينهم ، بل كانوا يشاركون فيه بني إسرائيل "[٢١٦] ، مما يدل على عدم إيمانهم بالله أيضاً إسناد الكشف إلى موسى عليه السلام في قولهم ﴿ كشفت ﴾[٢١٧]، مع سوء أدبهم مع ربهم . و في الجواب بقوله ﴿ كشفنا ﴾ بإسناد الكشف لمن استنكفوا من اللجوء إليه بيان لسعة رحمته تعالى ، و أنه هو الفاعل الحقيقي للكشف وليس موسى عليه السلام . و لما كان جرمهم عظيما بنقضهم العهد الذي جدوا في توكيده بقولهم ﴿ لنؤمنن لك و لنرسلن معك بني إسرائيل ﴾ تسبب

---

(٢١٤) انظر أبو حيان ج ٤ ص ٣٧٤ ، البقاعي ج ٨ ص ٤٢

(٢١٥) انظر البقاعي ج ٨ ص ٤٣

(٢١٦) ابن عطية ج ٧ ص ١٤٥

(٢١٧) انظر أبو حيان ج ٤ ص ٣٧٤

عن هذا[٢١٨] إحلال العقوبة بهم بإغراقهم في اليم ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا و كانوا عنها غافلين ﴾ {١٣٦} ، ولا يخفى ما في (الفاء) من معنى التعقيب المفيد سرعة إحلال العقوبة بهم ، يقول الطاهر معلقا على الآية : " هذا محل العبرة من القصة فهو مفرع عليها تفريع النتيجة على المقدمات "[٢١٩] ، فقد ترتب على فساد طباعهم و شدة كفرهم و مسارعتهم إلى نكث عهودهم مع الله أن أهلكهم.

و شبيه بالآية السابقة قوله تعالى في سورة الزخرف ﴿ و قالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ، فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ {٤٩ – ٥٠} ، و أعقبت الآية بذكر موجز للعقوبة في قوله ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ {٥٥} ، ليناسب السرد الموجز لقصة كل نبي من الأنبياء .

وقد أشار العلماء إلى مجيء جواب (لما) بعد شرطها على التعقيب من غير مهلة [٢٢٠]،و لمحت في مجيء (إذا) الفجائية في جواب (لما) تعجبا و إنكارا ، بالإضافة إلى المبادرة و السرعة في وقوع الجواب ، لما تحمله من معنى وجود الأمر على غير المتوقع.

والملحوظ أن الأداة (لما) قد جاءت مع أفعال الكشف والإنجاء في هذا القسم الثالث من الآيات و لم تأت فيما قبله . و لعل لما تحمله (لما) من معنى الوجوب ارتباطا بذلك ، فهي تصف حالا واقعة وتحمل تأكيدا على وجود الجواب حال وجود الشرط ، وفي ذلك يقول السيوطي عنها إنها: " تقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما

---

(٢١٨) انظر ابن جرير ج ٩ ص ٢٩ ، الرازي ج ١٤ ص ٢٢٠ ، البقاعي ج ٨ ص ٤٣ ، الطاهر ج ٩ ص ٧٤

(٢١٩) الطاهر ج ٩ ص ٧٤

(٢٢٠) أنظر ص ٥ من هذا البحث

نحو: لما جاءني أكرمته "[٢٢١]، بخلاف (إذا) التي تحمل معنى التوقع و إمكان الوقوع[٢٢٢]، فهي تعني توقع أو إمكان حصول الجواب حال وقوع الشرط ، و لا تجزم بتحققه ، خاصة و أنها بظرفيتها تحمل معنى الاستقبال . أما (لما) فإن دخولها على الماضي يفيد تحقق الوقوع .

و مما أسندت فيه (لـــما) إلى الكشف قوله تعالى في سورة يونس﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ {١٢} ، ويؤيد قول صاحب النظم– فيما نقله الرازي– ما ذكر سابقا من الفرق بين (إذا) و (لما) ، يقول ﴿ قوله و إذا مس الإنسان ﴾ (إذا) موضوعة للمستقبل ، ثم قال﴿ فلما كشفنا ﴾ و هذا للماضي ، فهذا النظم يدل على أن معنى الآية أنه هكذا كان فيما مضى ، و هكذا يكون في المستقبل ، فدل ما في الآية من الفعل المستقبل على ما فيه من المعنى المستقبل ، و ما فيه من الفعل الماضي على ما فيه من المعنى الماضي "[٢٢٣] ، فهو يشير ضمنا إلى تحقق وقوع الفعل مع (لما) ، و توقع حدوثه مع (إذا) لأن ما في المستقبل لا يجزم به .

و إذا كان المفسرون مجمعين في آيات هذا القسم على أن المراد الكافرون بدلالة ألفاظ الآيات ، فإنهم في آية يونس مختلفون ، فيذهب بعضهم إلى أن المراد بالإنسان هو الكافر بدلالة السياق ، حيث يقول ابن جرير في تفسير ﴿ مر كأن لم يدعنا ﴾ " عاد للشرك ودعوى الآلهة والأوثان أربابا معه "[٢٢٤] ، و يقول الرازي واصفا قاعدة هامة في

---

(٢٢١) السيوطي : همع الهوامع ج ١ ص ٢١٥

(٢٢) انظر ص ٢ من هذا البحث

(٢٣٣) الرازي ج ١٧ ص ٥٢ ، و انظر أبو حيان ج ٥ ص ١٣٤

(٢٣٤) ابن جرير ج ١١ ص ٦٦

تحديد المراد بلفظ إنسان في القرآن:" اللفظ المفرد المحلى بالألف و اللام حكمه إذا حصل هناك معهود سابق انصرف إليه ، وإن لم يحصل هناك معهود سابق وجب حمله على الاستغراق ، صونا له عن الإجمال والتعطيل . و لفظ الإنسان ههنا لائق بالكافر لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة "(٢٢٥) . و يذهب بعضهم إلى " أن نزولها في الكفار ثم هي بعد تتناول كل من دخل تحت معناها من كافر أو عاصٍ "(٢٢٦) ، في حين يذهب إلى أنها للجنس كل من : الزمخشري(٢٢٧) وأبي حيان(٢٢٨) و الألوسي(٢٢٩) . و مع أن قول أبي السعود في معنى لفظ إنسان هنا إنه " وصف للجنس باعتبار حال بعض أفراده ممن هو متصف بهذه الصفة "(٢٣٠) ، لا يُفهِم أنه محصور في الكافرين ، إلا أن الذي يظهر – و الله أعلم – أن المراد الكافر ؛ لأن ما ذكر من الإعراض لا يليق بالمسلم ، و لأن أغلب المفسرين ذكروا أن المسرف هنا هو الكافر (٢٣١) ، و لما أعقبت به الآيات من ذكر وعيد الأمم الكافرة في قوله تعالى ﴿ و لقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا...﴾ {١٣}، بل و لأن السياق كله في المشركين . و ذكر غير واحد من المفسرين في ارتباط الآية موضع الدرس بسابقتها" أنه تعالى حكى عنهم– أي الكفار– أنهم يستعجلون في

(٢٢٥) الرازي ج ١٧ ص ٥١ ، و انظر البقاعي ج ٩ ص ٨٣ ، حاشية الشهاب ج ٥ ص ١١ ، الطاهر ج ١١ ص ١٠٩

(٢٢٦) ابن عطية ج ٩ ص ١٨ ،

(٢٢٧) انظر الزمخشري ج ٢ ص ٢٢٨

(٢٢٨) انظر أبو حيان ج ٥ ص ١٣٣

(٢٢٩) انظر الألوسي ج ١١ ص ٨٠

(٢٣٠) أبو السعود ج ٤ ص ١٢٦

(٢٣١) انظر ابن جرير ج ١١ ص ٦٦ ، ابن عطية ج ٩ ص ١٨ ، الرازي ج ١٧ ص ٥٢، أبو حيان ج ٥ ص ١٣٤ ، البقاعي ج ٩ ص ٨٥ ، الطاهر ج ١١ ص ١١٢

نزول العذاب ، ثم بين في هذه الآية أنهم كاذبون في ذلك الطلب و الاستعجال ؛ لأنه لو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه و يؤذيه فإنه يتضرع إلى الله تعالى في إزالته عنه "[(٢٣٢)] ، و ذكر آخرون أن " تعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث إن في كل منهما إملاء للكفرة على طريقة الاستدراج بعد الإنقاذ من الشر المقدر في الأولى ، و من الضر المقرر في الأخرى "[(٢٣٣)] .

و الآيات تبين حالا للإنسان يلتجيء فيها إلى الله تعالى بانقطاع تام،و يتضرع إليه في كل أحواله مضطجعا متهالكا ، و قاعدا غير قادر على القيام ، و قائما غير قادر على المشي ضعفا واضطرابا[(٢٣٤)]. و يظل يدعو ربه طوال مدة المس بالضر[(٢٣٥)] ، فإذا ما استجاب له ربه و بادره بكشف الضر بما تشير إليه الفاء[(٢٣٦)] في قوله﴿ فلما كشفنا ﴾ عاد إلى طريقته الأولى قبل مس الضر من الإعراض عن ربه[(٢٣٧)] ، و قيل ترك موطن الابتهال والتضرع[(٢٣٨)] . والمرور هنا استعارة[(٢٣٩)] جسّدت حال هذا المعرض عن ربه

---

(٢٣٢) الرازي ج ١٧ ص ٤٩ ، و انظر أبو حيان ج ٥ ص ١٣٣

(٢٣٣) أبو السعود ج ٤ ص ١٢٦ ، و انظر الألوسي ج ١١ ص ٨٠ ن الطاهر ج ١١ ص ١٠٩

(٢٣٤) انظر الزمخشري ج ٢ ص ٢٢٨ ، أبو حيان ج ٥ ص ١٣٣ – ١٣٤ ، أبو السعود ج ٤ ص ١٢٦ ،

(٢٣٥) انظر البقاعي ج ٩ ص ٨٤ .

(٢٣٦) انظر البقاعي ج ٩ ص ٨٤ ، أبو السعود ج ٤ ص ١٢٦ ، الألوسي ج ١١ ص ٨٠

(٢٣٧) انظـــر ابن جرير ج ١١ ص ٦٦ ، الزمخشـــري ج ٢ ص ٢٢٨ ، ابن عطية ج ٩ ص ١٨ ، الرازي ج ١٧ ص ٥١ ، أبـــو حيان ج ٥ ص ١٣٤ ، أبو السعود ج ٤ ص ١٢٦ ، حاشية الشهاب ج ٥ ص ١١ المتن و الهامش ، الألوسي ج ١١ ص ٨٠ ، الطاهر ج ١١ ص ١١١

(٢٣٨) انظر المصادر السابقة ما عدا الطاهر

(٢٣٩) حاشية الشهاب ج٥ ص١١ ، الألوسي ج١١ص٨ ، الطاهر بن عاشور ج١١ ص١١١ .

المنكر لنعمته رشّحتـــــها جملة الحال التشبيهية [٢٤٠] في قوله : ﴿ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ ، فهي تجعل صورة هذا الجاحد الذي ينتقل من مقام الشكر إلى مقام الكفران ناسياً أو متناسياً ما كان فيه قبل قليل من الضعف والعجز والحاجة إلى ربه الكريم ؛ حاضرة في الذهن ، وفي ذلك بيان لسوء عبوديته[٢٤١] وتقبيح لحاله .

ولما كان هذا الأمر مما لا يليق بحال الإنسان مع ربه المنعم عليه ، فقد أتبعه القرآن بذكر إهلاك الأمم الظالمة في قوله تعالى ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ {١٣} تهديداً لمن يفعل ذلك وردعاً لهم [٢٤٢]

وفي سورة يونس موطن آخر مشابه إلا أن فيه زيادة على الإعراض وقوع البغي من هذا الإنسان الجاحد ، وهو قوله تعالى:﴿ هو الذي يسيركم في البر و البحر حتى إذا كنتم في الفلك و جرين بهم بريح طيبة و فرحوا بها جاءتها ريح عاصف و جاءهم الموج من كل مكان و ظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾{٢٢ –٢٣} ، يقول الرازي في ذكر علاقة هذه الآية بسابقتها " اعلم أنه تعالى لما قال:﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ كان هذا الكلام كلاماً

(٢٤٠) انظر أبو السعود ج٤ ص١٢٦ .

(٢٤١) انظر البقاعي ج٩ ص٨٤ .

(٢٤٢) انظر ابن جرير ج١١ ص٦٦ ، ابن عطية ج٩ ص١٨ ، الرازي ج١٧ ص٥٣ ، أبو حيـــــان ج٥ ص١٣٤ ، البقاعي ج٩ ص٨٥ ، أبو السعود ج٤ ص١٢٧ ، الألوسي ج١١ ص٨١ ، الطاهر ج ١١ص١١٣

كلياً لا ينكشف معناه تمام الانكشاف إلا بذكر مثال كامل ، فذكر الله تعالى لنقل الإنسان من الضر الشديد إلى الرحمة مثالاً ، ولمكر الإنسان مثالاً حتى تكون هذه الآية كالمفسرة للآية التي قبلها "[٢٤٣] والمذكور في هذه الآية ضرب من ضروب مكرهم حال نجاتهم من شدائد البحر التي هي أغلب على الإنسان من خوف البر[٢٤٤] ، فالله تعالى يمتن على هؤلاء الكفار بنعمة تسخير الفلك لهم وتسييرهم بها في البحر ابتغاء للمنفعة ، ثم يلتفت عنهم في قوله:﴿ وجرين بهم ﴾ " كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها، ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح "[٢٤٥]، وقيل إن الإلتفات تبعيد لهم ومقت[٢٤٦] واستظهر أبو حيان " أن حكمة الالتفات هنا هي أن قوله ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ خطاب فيه امتنان وإظهار نعمة . والمسيرون في البر والبحر مؤمنون وكفّار والخطاب شامل ، فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح على الشكر ، ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة فيرجع ، فلما ذُكرت حالة آل الأمر في آخرها إلى أن الملتبس بها هو باغ في الأرض بغير الحق عدل عن الخطاب إلى الغيبة ، حتى لا يكون المؤمنون يخاطبون بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي"[٢٤٧] . ويحكي القرآن سوء صنيعهم وقبيح ما أتوا في حق من اعترفوا بوحدانيته ، فهم حال ما أتتهم الريح الشديدة و أحاط بهم الموج من كل مكان وأشرفوا على الهلاك بما دل عليه قوله ﴿ أحيط بهم ﴾ حيث " جعل إحاطة

---

(٢٤٣) الرازي ج١٧ ص٦٧

(٢٤٤) انظر أبو حيان ج٥ ص١٤١ ، البقاعي ج٩ ص٩٨

(٢٤٥) الزمخشري ج٢ ص٢٣١ ، انظر أبو السعود ج٥ ص١٣٤ ، حاشية الشهاب ج٥ ص١٨ المتن والهامش ، الألوسي ج١١ ص٩٦

(٢٤٦) انظر الرازي ج١٧ ص٦٩ ، البقاعي ج٩ ص٩٨ .

(٢٤٧) أبو حيان ج٥ ص١٤٢ .

العدو بالحي فعلاً في الهلاك " [٢٤٨] ؛ أخلصوا الله بالدعاء والعبادة ، وهذا أمرٌ مركوزٌ في طبائع العالم [٢٤٩]، وأخذوا على أنفسهم عهدا لله بالعبادة والشكر﴿لنكونن من الشاكرين ﴾، ويلحظ مؤكدات وعدهم من القسم ونون التوكيد وكونهم من جنس الشاكرين العريقين الراسخين في هذه الصفة [٢٥٠] ، ومع استبعادهم للنجاة – بما دلت عليه أداة الشك (إن) – لإحاطة أسباب الهلاك بهم وشدة الخطب وإبلاسهم مما هم فيه من الرعب الذي يخرس الألسنة[٢٥١] ؛ تسرع الإجابة إليهم بدلالة الفاء في قوله: ﴿ فلما نجاهم ﴾[٢٥٢] ، و يأتي ردهم لحسن صنيع ربهم بهم بإقدامهم في الحال – بما دلت عليه إذا الفجائية[٢٥٣]– على البغي في الأرض ، مع تجدد ذلك و استمراره بما دلت عليه صيغة المضارع[٢٥٤]. و إضافة في الأرض تأكيد لتمكنهم من النجاة فقد " جعلوا مكان

(٢٤٨) الزمخشري ج٢ ص٢٣٢ ، وانظر الـرازي ج١٧ ص٧٠ ، أبو حيان ج٥ ص١٤٢ ، البقاعي ج٩ ص٩٨ ، أبـو السعود ج٥ ص١٣٤ ، حاشية الشهاب ج٥ ص١٨ المتن والهامش ، الألوسي ج١١ ص٩٧ ، الطاهر ج١١ ص١٣٧

(٢٤٩) انظر أبو حيان ج٥ ص١٤٣ .

(٢٥٠) انظـر البقاعي ج٩ ص٩٩ ، أبو السعود ج٥ ص١٣٥ ، الألوسي ج١١ ص٩٨ ، الطاهـر ج١١ ص١٣٨ .

(٢٥١) انظـر على سبيل المثال : الطاهر ج ٢٤ ص ٧١ آية الزمر ٧١ ، و مواضع الحذف لضيق المقام في شروح التلخيص ج ١ ص ٢٧٧ ، ج ٢ ص ٢ ، ٣

(٢٥٢) انظر البقاعي ج٩ ص١٠٠ ، أبو السعود ج٥ ص١٣٥ ، حاشية الشهاب ج٥ ص١٩ المتن والهامش، الألوسي ج١١ ص٩٨ .

(٢٥٣) انظر الرازي ج ١٧ ص ٧١ ، أبو حيان ج ٥ ص ١٤٣ ، البقاعي ج ٩ ص ١٠٠ ، أبو السـعود ج ٥ ص ١٣٥ ، حاشية الشهاب ج ص ١٩ المتن و الهامش ، الألوسي ج ١١ ص ٩٨ ، الطاهـر ج ١١ ص ١٣٨

(٢٥٤) انظر أبو السعود ج ٥ ص ١٣٥ ، الألوسي ج ١١ص ٩٨ ، الطاهر ج ١١ ص ١٣٨

أثر النعمـــة بالنجاة مكانا للبغـــــي" [٢٥٥]، وفيه إشـــارة إلى عموم بغيهم في جميع أقطارها[٢٥٦] ، وتقبيح لحالهم و توبيخ لهم على هذا النكران . و لما كان الجرم عظيما فقد ختمت الآية بتهديدهم و وعيدهم بالعقوبة بتوجيه الخطاب إليهم[٢٥٧] في قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ {٢٣}، فوبال هذا الظلم والعدوان على من نجاهم عائد عليهم ، وانتفاعهم به قصير قصر الحياة الدنيا الزائلة ؛ لأن المتاع – كما سبق أن ذكر– " يطلق على ما لا بقاء له "[٢٥٨] ، ثم لا مهرب لهم من الله تعالى الذي جحدوا فضله و قابلوا إحسانه بالإساءة ، و مردهم سيكون إليه وحده دون سواه بما دل عليه تقديم الجار والمجرور[٢٥٩] . و قد عطفت الجملة بـــ (ثم)كما يقول الطاهر"لإفادة التراخي الرتبي،لأن مضمون هذه الجملة أصرح تهديدا من مضمون جملة﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾... وتفريع ﴿ فننبئكم ﴾ على جملة ﴿ إلينا مرجعكم ﴾ تفريع وعيد على تهديد" [٢٦٠] ، فكأن أولى مراتب التهديد هي إعلامهم بأن عاقبة بغيهم عائدة عليهم ، ثم يترقى التهديد إلى إعلامهم بأن مرجعهم إلى من بغوا و تجاوزوا على حدوده ، مما يعني وقوفهم بين يديه وانقطاعهم عن الأسباب التي كانوا يعتمدون عليها دونه ، ثم يذكر (الإنباء) المتضمن معنى المجازاة ؛ لأنه " إذا ذكر علم الله أو إثباته بكتابة و نحوها لما فعله العباد فهو عبارة

---

(٢٥٥) الطاهر ج ١١ ص ١٣٨

(٢٥٦) انظر أبو السعود ج ٥ ص ١٣٥ ، الألوسي ج ١١ ص ٩٨

(٢٥٧) انظر أبو السعود ج ٥ ص ١٣٥ ، الألوسي ج ١١ ص ٩٨

(٢٥٨) حاشية الشهاب ج ٥ ص ١٩

(٢٥٩) انظر أبو السعود ج ٥ ص ١٣٦ ، الألوسي ج ١١ ص ١٠٠ ، الطاهر ج ١١ ص ١٤٠

(٢٦٠) الطاهر ج ١١ ص ١٤٠

عن المجازاة "[٢٦١] . و طريقة إثبات العقوبة – كما ذكرها الطاهر[٢٦٢]– أن من يعلم سوء صنيع عبده فلا يمنعه من عقوبته مانع . و إلى معنى المجازاة أشار أغلب المفسرين في تفسير لفظي (اللجوء و الإنباء)[٢٦٣]. و لا يخفى أن الآية في الكفار لاتصالها بسابقتها التي ذكر أغلب المفسرين أنها فيهم [٢٦٤] .

و هناك موطن يلتقي مع السياق في كونه كشفا وإزالة لشدة وهو قوله تعالى في سورة النحل ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ {٥٣ – ٥٥} ، وهذا هو السر في عدم إلحاقها بشبيهتها في سورة الروم التي سبقت دراستها في القسم الثاني من هذا البحث وهي قوله تعالى﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾{ ٣٣ – ٣٤ } ؛ لأن آية الروم هناك تتحدث عن حال الإنسان حين يعقب الضراء ذوق الرحمة ، و آية النحل هنا تذكر حاله عند كشف ما به من ضر . فهؤلاء إذا أصابهم الضر فزعوا إلى الله وحده ، و حين يتحقق كشف الضر عنهم بدلالة (إذا) التي يقول عنها أبو السعود : " ولعل إيراد (إذا) دون (إن) للتوسل به إلى تحقق وقوع الجواب" [٢٦٥] ؛ يتحقق شركهم . و الآيات تعبر عن سعة

---

(٢٦١) حاشية الشهاب ج ٥ ص ١٧

(٢٦٢) انظر ج ١١ ص ١٤٠

(٢٦٣) انظـــر ابن جرير ج ١١ ص ٧١ ، الرازي ج ١٧ ص ٧٢ ، البقاعي ج ٩ ص ١٠١ ، البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ج ٥ ص ١٩ ، أبو السعود ج ٥ ص ١٣٦ ، الألوسي ج ١١ ص ١٠٠

(٢٦٤) انظر ص ٣٢ ، ٣٣ من هذا البحث

(٢٦٥) أبو السعود ج ٥ ص ١٢٠

رحمة الله و عميم إحسانه مقابل شدة جحود المشركين مع الله آلهة غيره[٢٦٦] ، مع معرفتهم أنه لا ملجأ لهم في الشدائد إلا إليه ، فنراهم وقد استغرقوا في نعم الله زمنا [٢٦٧] بما دلت عليه أداة التراخي في قوله ﴿ ثم إذا مسكم ﴾ مما أبطرهم و جعل أمر إخلاصهم مستبعدا[٢٦٨] ، و حين أصابتهم أدنى درجات الضر ـ بما دل عليه فعل المس و التعريف الدال على أدنى ما يطلق عليه اسم الضر[٢٦٩] ـ فزعوا إلى الله وحده [٢٧٠] ـ بما أفاده تقديم الجار و المجرور ـ و كان الأولى بهم أن يُمنعوا الفضل لسوء صنيعهم مع ربهم ، ولكن الله تعالى يعاملهم بفضله فيكشف و يزيل هذا الضر عنهم ، فيبادرون إلى الإشراك بما دلت عليه(إذا)الفجائية! و جيء بـ (ثم) في قوله ﴿ ثم إذا كشف الضر ﴾ : "للدلالة على تراخي رتبة ما يترتب عليه من مفاجأة الإشراك المدلول عليها بقوله ﴿ إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ فإن ترتبها على ذلك في أبعد غاية من الضلال"[٢٧١]. و في كون فعل الشرك بربهم المتفضل إيذان" بكمال قبح ما ارتكبوه من الإشراك والكفران"[٢٧٢]. وقد ترتب على هذا أمرهم بالكفر تهديدا بقوله ﴿ ليكفروا بما آتيناهم

---

(٢٦٦) انظر ابن جرير ج ١٤ ص ٨٢، الزمخشري ج ٢ ص ٤١٣ ، ابن عطية ج ١٠ ص ١٩٧ ، الرازي ج ٢٠ ص ٥١ ، أبـو حيان ج ٥ ص ٤٨٧ ، البقاعي ج ١١ ص ١٧٩ ، أبو السعـود ج ٥ ص ١٢٠ ، حاشية الشهاب ج ٥ ص ٣٤٠ المتن و الهامش ، الألوسي ج ١٤ ص ١٦٥ ، الطاهـر ج ١٤ ص ١٧٨

(٢٦٧) انظر أبو السعود ج ٥ ص ١٢٠ ، الألوسي ج ١٤ ص ١٦٥ .

(٢٦٨) البقاعي ج ١١ ص ١٧٩

(٢٦٩) انظر أبو السعود ج ٥ ص ١٢٠ ، الألوسي ج ١٤ ص ١٦٥

(٢٧٠) انظر الزمخشـري ج ٢ ص ٤١٣ ، الرازي ج ٢٠ ص ٥١ ، أبو حيان ج ٥ ص ٤٨٧ ، البقاعي ج ١١ ص ١٨٠ ، أبو السعود ج ٥ ص ١٢٠ ، حاشية الشهاب ج ٥ ص ٣٤٠ المتن و الهامش ، الألوسي ج ١٤ ص ١٦٥

(٢٧١) أبو السعود ج ٥ ص ١٢٠

(٢٧٢) أبو السعود ج ٥ ص ١٢٠ ، وانظر الألوسي ج ١٤ ص ١٦٥

فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ ففي أمرهم بما يوجب عقوبتهم دلالة على كمال الغضب . وحذف مفعول (تعلمون) وهو " المتهَدَّد به أبلغ و أهول لذهاب النفس في تعيينه كل مذهب "[٢٧٣] ، و فيه إشعار بأنه مما لا يوصف[٢٧٤] .

و يلحظ في هذه الآية كثرة و تتابع الفاءات في قوله ﴿ فمن الله ، فإليه تجأرون ، فتمتعوا ، فسوف تعلمون ﴾ و لعل الفاء الأولى (فمن) تدل على السببية و كونها من الله تعالى ، و أما الثانية (فإليه) فإنها تشير إلى التعقيب و الترتيب ، و فيها معنى المبادرة إلى الدعاء و التضرع . و قد ناسب مبادرتهم بالإشراك مبادرته تعالى لهم بالعقوبة المتمثلة في وعيدهم في قوله ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ ، فهم قد أقبلوا إليه مسرعين ساعة الشدة ، و أدبروا عنه في الحال ساعة كشفها فناسب ذلك أن يبادرهم بذكر عقوبتهم .

و مما جاء فيه لفظ إنسان مرادا به الكافر[٢٧٥] قوله تعالى ﴿ و إذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم و كان الإنسان كفورا ﴾ {الإسراء ٦٧}. و ضر البحر أهواله و خوف الغرق فيه ، و هؤلاء الكفار حال وقوعهم في شدائد البحر لا يدعون غير الله لإنجائهم غائبا عنهم ذكر آلهتهم التي يشركونها مع الله في العبادة. وحين تتحقق نجاتهم وتخليصهم مما هم فيه من الشدة بفضله و قدرته تعالى يكون ردهم الإعراض عن توحيده و عبادته وشكره. و مع ما أشار إليه فعل المس من الإصابة بأدنى درجات الضر، وسرعة استجابته تعالى لهم بما دلت عليه فاء التعقيب ؛ من

---

(٢٧٣) البقاعي ج ١١ ص ١٨١

(٢٧٤) انظر أبو السعود ج ٥ ص ١٢٠ ، الألوسي ج ١٤ ص ١٦٦

(٢٧٥) انظر ابن جرير ج ١٥ ص ٨٤ ، الزمخشري ج ٢ ص ٤٥٧ ، ابن عطية ج ١٠ ص ٣٢٢ ، الرازي ج ٢١ ص ١٠ ، أبو حيان ج ٦ ص ٥٧ ، ابن كثير ج ٤ ص ٣٢٧ ، البقاعي ج ١١ ص ٤٧٢ ، أبو السعود ج ٥ ص ١٨٥ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤٧ المتن و الهامش ، الألوسي ج ١٥ ص ١١٤ ، الطاهر ج ١٥ ص ١٥٩

رحمته بهم ، فإن في مجيء جواب (لما) – الدالـــــة على وجوب لوجـــوب – ماضيا ﴿أعرضتم ﴾ ؛ دلالة على فساد طباعهم و على بُعد ما بين رحمة الله و جحودهم . و لا يعكر على حديث الرحمة مجيء (إذا) في قوله ﴿ و إذا مسكم ﴾ التي تفيد تحقق الوقوع ، لأن السبب فيه أن الآيات في سياق جاء فيه " وصف المشركين في اعتقادهم آلهتهم و أنها تضر و تنفع ، و اتبع ذلك بقصة إبليس مع آدم و تمكينه من وسوسة ذريته و تسويله "[٢٧٦] ، فهي تشير إلى أن اختبار هؤلاء بمس الضر وهو أقل الإصابة أمر محقق الوقوع . و من دلالات (إذا) هنا ما سبق أن ذُكر في آية يونس ﴿ و إذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ {١٢} من الإشارة إلى أن حال الإنسان وقت مس الضر سيكون الالتجاء إلى الله بدلالة(إذا) الموضوعة للمستقبل ، و أن حاله المحقق في كل مرة هو الإعراض عند كشف الضر بدلالة (لما)[٢٧٧] . و لا يخفى ما في مجيء جواب الشرط بعد فعله مباشرة بعد (إذا) و (لما) من الإشارة إلى جحود هذا الإنسان و نكرانه ؛ لبعد ما بين حال المبادرة بالدعاء في الشدة و حال المبادرة إلى الإعراض مع كشف الضر. وختمت الآية بذكر نكران جنس[٢٧٨] الإنسان لنعم ربه ﴿ وكان الإنسان كفورا ﴾ " و لم يخاطبهم بذلك بل أسند ذلك إلى الإنسان لطفا بهم ، و إحالة على الجنس إذ كل أحد لا يكاد يؤدي شكر نعم الله "[٢٧٩]. و لما كان القرآن يفسر بعضه بعضا فإننا

(٢٧٦) أبو حيان ج ٦ ص ٥٧

(٢٧٧) انظر الرازي ج ١٧ ص ٥٢ ، أبو حيان ج ٥ ص ١٣٤ ، و انظر ص ٣٢ من هذا البحث

(٢٧٨) انظر ابن جرير ج ١٥ ص ٨٤ ، ابن عطية ج ١٠ ص ٣٢٢ ، ابن كثير ج ٤ ص ٣٢٧ ، البقاعي ج ١١ ص ٤٧٢ ، حاشية الشهاب ج ٦ ص ٤٨ ، الألوسي ج ١٥ ص ١١٥ ، الطاهــر ج ١٥ ص ١٦٠

(٢٧٩) أبو حيان ج ٦ ص ٥٧

نستطيع أن نفهم من قول ابن كثير " أي سجيته هذا ينسى النعم و يجحدها إلا من عصم الله "(٢٨٠)، وقول البقاعي: " يعم هذا النوع لطبعه على النقائص إلا من أخلصه الله "(٢٨١) ؛ أن المؤمن مستثنى من هذا بدليل قوله تعالى في آية هود ﴿ و لئن أذقنا... إلا الذين صبروا...﴾ {٩ – ١٠} وقوله تعالى ﴿إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون...﴾ {المعارج ١٩ – ٣٥}(٢٨٢). و لما كان جرم من يدعو ربه عند الشدة و يعرض عنه إذا كشفها عظيما ، ذكرهم تعالى أنه قادر على إيقاع العذاب بهم في البر الذي نجوا منه ، وأنه قادر على إرجاعهم إلى البحر مرة أخرى ، ثم إغراقهم فيه فقال ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا أو أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ {٦٨ – ٦٩} ، و في هذا من التخويف و الوعيد ما فيه .

وفي سورة العنكبوت موضع آخر في خوف البحر يقول عنه وعن أمثاله الطاهر ابن عاشور : " وإنما خص بالذكر حال خوفهم من هول البحر في هذه الآية ، و في آيات كثيرة مثل ما في سورة يونس و ما في سورة الإسراء ، لأن أسفارهم في البر كانوا لايعتريهم فيها خوف يعم جميع السفر ، لأنهم كانوا يسافرون قوافل معهم سلاحهم ، ويمرون بسبل يألفونها فلا يعترضهم خوف عام ، فأما سفرهم في البحر فإنهم يفرقون من

(٢٨٠) ابن كثير ج ٤ ص ٣٢٧

(٢٨١) البقاعي ج ١١ ص ٤٧٢

(٢٨٢) انظر في ذلك أقوال المفسرين ابن جرير ج ٢٩ ص ٤٩ ، ٥٠ ، الزمخشري ج ٤ ص ١٥٨ ، ابن عطية ج ١٦ ص ١١٣ ، الرازي ج ٢٩ ص ١٢٨ ، أبو حيان ج ٨ ص ٣٢٩ ، البقاعي ج ٢٠ ص ٤٠٠ ، ٤٠١ ، الألوسي ج ٢٩ ص ٦٢

هوله ، و لا يدفعه عنهم وفرة عدد و لا قوة عُدَد ... و أيضا كان يخامرهم الخوف عند ركوبهم في البحر لقلة إلفهم بركوبه إذ كان معظم أسفارهم في البراري"[٢٨٣] و هو كلام حسن . والمتأمل في حال الناس اليوم من فرقهم من البحر و تحقق ما جاء في الآية فيهم قد يرى في اختصاص ذكر خوف البحر أسبابا أخرى ، فللبحر قوة عاتية جعلت الرسول صلى الله عليه و سلم ينهى عن ركوبه إلا لحج أو غزو ، والإنسان – مهما أوتي من العلم في حركات الرياح وحالات الطقس وطبيعة المنطقة التي يبحر فيها – لا يستطيع أن يتنبأ بما سيفاجئه في البحر، مما يجعل الخطر في ركوبه داهما ، و الضرر لا يُدرى مأتاه .

يقول تعالى ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون﴾ {العنكبوت ٦٥ – ٦} وهذه الآية كسابقتيها من حيث دلالة (إذا) و (لما) ، فهؤلاء الكفار[٢٨٤] كعادة الذين تنقطع بهم أسباب طغيانهم و تجبرهم و يوقنون أنه لا مخلص لهم من الشدائد إلا الله ، فيلجأون له وحده بالدعاء والتضرع. و حينما ينجيهم من هذه المهالك إلى البر يبادرون إلى الإشراك مرة أخرى بما دلت عليه (إذا) الفجائية [٢٨٥]. و هذا شأنهم المحقق كلما وقع لهم هذا الأمر فيما يستقبل من الزمان . وهنا تتوعدهم الآيات بقوله ﴿ ليكفروا﴾ لأن "الأمر فيه للتهديد والله سبحانه لا يأمرهم بالكفر، و لكن لما علم أنه لا يكون منهم

---

(٢٨٣) الطاهر ج ٢١ ص ٣٢

(٢٨٤) انظر ابن جرير ج ٢١ ص ٩ ، الزمخشـري ج ٣ ص ٢١٢ ، ابن عطية ج ١٢ ص ٢٣٨ ، الرازي ج ٢٥ ص ٩٢ ، أبو حيان ج ٧ ص ١٥٤ ، البقاعي ج ١٤ص ٤٧٦ ، أبو السعود ج ٧ ص ٤٧ حاشـية الشهاب ج ٧ ص ١٠٩ المتن و الهامـش ، الألوسـي ج ٢١ ص ١٣ ، الطاهر ج ٢١ ص ٣٢

(٢٨٥) انظر أبو حيان ج ٧ ص ١٥٥ ، أبو السـعود ج ٧ ص ٤٧ ، حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٠٩ المتن و الهامش ، الألوسي ج ٢١ ص ١٣ ، الطاهر ج ٢١ ص٣٣

إلا ذلك، و أنهم أصحاب لجاجة ، واجههم بهذا التهديد الموحي بأن الله سبحانه لشدة غضبه عليهم كأنه يأمرهم بما يوجب عقابهم"(٢٨٦)، والملحوظ هنا أن الآية أعرضت عن مواجهتهم بالتهديد ، خلافا لشبيهاتها في السياقات السابقة ، و لعل ذلك لمزيد من إظهار حقارة شانهم بعدم مخاطبتهم – ولو على سبيل التهديد – أو لعله حكاية لغيرهم عن صنيعهم للتعجيب منه .

و يتكرر التهديد و الوعيد بالأمر بالكفر و التمتع في عدة سياقات ، فقد ذكر المتاع ومشتقاته عقب أجوبة الشرط في آيات الابتلاء في خمسة مواضع أربعة منها بصيغة الأمر، و ورد فعل الأمر بالكفر في ثلاثة منها و الآيات هي :

﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ {يونس ٢٣}

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركــون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ {النحل ٥٥}

﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ليكفروا بما آتيناهم و ليتمتعوا فسوف يعلمون ﴾{العنكبوت٦٥–٦٦}

﴿ و إذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ {الروم ٣٤ }

﴿ و إذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة نسي ما كان

(٢٨٦) د. محمد أبو موسى : دلالات التراكيب ص ٢٥٠

يدعو إليه من قبل و جعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾ {الزمر ٨}

يقول د. صباح دراز معلقا على الأمر بالتمتع فيها " و المثير في دلالة التمتع على صيغة الأمر أنها جاءت في سبع آيات في خطابات شديدة متوعدة في إهانة وتبكيت على ألسنة الرسل ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ {الذاريات ٤٣} ، و عن ثمود أيضا ﴿ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ {هود ٦٥ }، و عن مشركي العرب﴿ كلوا و تمتعوا قليلا ﴾ {المرسلات ٤٦} " [٢٨٧]. و قد سبق التعليق على دلالة الأمر بالتمتع في سياق الآيات الخاصة به من البحث .

فروق في هيئات المعاني :

وردت في الآيات السابقة أفعال النجاة بين صيغتي (أنجى) و (نجى) يقول تعالى في سورة الأنعام ﴿ قل من ينجيكم في ظلمات البر و البحر تدعونه تضرعا و خفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها و من كل كرب ثم أنتم تشركون﴾{٦٣-٦٤}، ويقول في سورة يونس ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ {٢١-٢٢} و في سورة الإسراء﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم و كان الإنسان كفورا ﴾ {٦٧} و في سورة العنكبوت﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهـــــم إلى البر إذا هم يشركـــون ﴾ {٦٥} ، فأول ما يلحظ أنها وردت في أفعال الشرط بصيغة المزيد بهمزة التعدية (أنجى) مرتين في آية الأنعام و هود مسبوقة بـــ(إن)، وفي الجواب بصيغة (نجّى) في ثلاثة

(٢٨٧) د. صباح دراز : الأساليب الإنشائية ص ٣٨ .

مواضع و بصيغة (أنجى) مرة واحدة. و يذكر ابن فارس في معنى النجاة أنها في أحد أصليها تدل على الكشط و الكشف[٢٨٨] ، ويذكر ابن منظور أن معناها (الخلاص من الشيء)[٢٨٩]، و كلا القولين يشير إلى أن هناك خروجا من ورطة أو شدة ، و هذا يوحي بحصول الأمن بعد الخوف والسلامة بعد الإشراف على الهلاك .

و لم أجد من المفسرين الذين اطلعت على كتبهم من أشار إلى الفرق بين صيغة (نجى) و (أنجى) سوى البقاعي في آية الإسراء حيث قال "﴿ فلما نجاكم﴾ من الغرق وأوصلكم بالتدريج "[٢٩٠]، و أشار د.إبراهيم الجعلي في تعليقه على آية سورة البقرة ﴿ و إذ نجيناكم من آل فرعون ... ﴾{ ٤٩} إلى معنى التكثير و الملاءمة لمقام التعظيم [٢٩١] ، و لعله المراد هنا أي نجاكم مرة بعد مرة . أما الفعل (أنجى) فقد ذكر علماء التصريف أن من معاني صيغة (أفعل) التمكين[٢٩٢] ، وهو الملائم هنا في آية يونس فيصبح معنى (أنجاهم) أي مكنهم من النجاة . و لعل الفعل (أنجى) هنا ملائما في الرد على طلبهم بقولهم ﴿لئن أنجيتنا﴾. ولا يعكر على هذا مجيء الطلب بصيغة (أنجى)، والإجابة بصيغة (نجى) في آية الأنعام ﴿ لئن أنجانا... قل الله ينجيكم منها...﴾ ، لأنه تعالى ذكرهم بالنجاة من هذه الشدة ومن غيرها من الشدائد ، فناسب الصيغة الدالة على التكثير و التعظيم كما في آية البقرة .

وقريب من دلالة النجاة دلالة الكشف التي سابقا في آية الأنعام ﴿ قل أرأيتكم

---

(٢٨٨) انظر ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ج ٥ ص ٣٩٧

(٢٨٩) ابن منظور : لسان العرب ج ١٥ ص ٣٠٤ مادة (نجى)

(٢٩٠) البقاعي ج ١١ ص ٤٧٢

(٢٩١) انظر د. إبراهيم الجعلي : من جماليات التكرار ص ٨٠ ، أحمد الحملاوي : شذا العرف ص ٤٣

(٢٩٢) انظر الحملاوي : شذا العرف ص ٤٢

إن أتاكم عذاب الله﴾{٤٠-٤١}، و آية الأعراف ﴿ و لما وقع عليهم الرجز... ﴾ {١٣٤ – ١٣٥} و آية يونس ﴿ وإذا مس الإنسان الضر ... ﴾ {٢١} ، و قد سبقت الإشارة إلى دلالة الكشف .

أما عن أفعال الشرط فقد جاء فعل الإذاقة في سبعة مواضع ستة منها أسند للرحمة بصيغة التنكير ، وواحد للنعماء نكرة أيضا ، أما المواضع الست فهي :

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ... ﴾ { يونس ٢١}

﴿ و لئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها ...﴾{هود٩}

﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ...﴾ {فصلت ٥٠}

﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها...﴾ {الشورى ٤٨}

﴿ ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركو﴾ {الروم ٣٣}

﴿ و إذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ...﴾ {الروم ٣٦}

و أما الواحد فهو قوله تعالى:

﴿ و لئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني ...﴾ {هود ١٠}

ومن مواضع ورود (الذوق) مواضع ذكر العذاب[٢٩٣] ، التي ذهب صاحب المفردات في غريب القرآن (ت ٥٦٥ هـ) إلى أنه كثر استعماله فيه[٢٩٤] ، وذلك لما فيه من الدلالة على شدة الإحساس ، حيث يقول الرازي في معناه إنه " إدراك لمسي أتم

(٢٩٣) آل عمران ١٨١ ، النساء ٥٦ ، المائدة ٩٥ ، الأنعام ٦٥ ، ١٤٨ ، يونس ٥٢ ، النحل ٩٤ ، ١١٢ ، سبأ ١٢ ، ٤٢ ، ص ٨ ، ٥٧ ، الزمر ٢٦ ، القمر ٤٨ ، التغابن ٥ ، الطلاق ٩ ، النبأ ٢٤

(٢٩٤) انظر الأصبهاني : المفردات في غريب القرآن ص ٢٦٤

من غيره في الملموسات ... فيجتمع في العذاب شدته و إيلامه "[٢٩٥]. ولا يتعارض هذا مع إسناده للرحمة ، لأن المراد هنا إدراك شيء قليل من الرحمة ، وهو مع قلته يدفع بالإنسان إلى التمرد .

و جاء ذكر المس مسندا للإصابة بالضر والشر إحدى عشرة مرة ، أربع مرات منها للشر معرفا ، و سبع مرات للضر واحدة منهن بلفظ الضراء منكرا ، و ثلاث للفظ الضر منكرا ، و ثلاث له معرفة ، و أسند مرة واحدة للخير ، و هي كالآتي :

﴿ و إن مسه الشر فيئوس قنوط ﴾ {فصلت ٤٩}

﴿ و إذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ {فصلت ٥١}

﴿ و إذا مسه الشر كان يؤوسا ﴾ {الإسراء ٨٣}

﴿ إذا مسه الشر جزوعا ﴾ {المعارج ٢٠}

﴿ و لئن أذقناه ... ضراء مسته ليقولن هذا لي ...﴾ {فصلت٥٠}

﴿ و إذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه﴾{الزمر ٨}

﴿ فإذا مس الإنسان ضر دعانا ...﴾ {الزمر ٤٩}

﴿ و إذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ {الإسراء ٦٧}

﴿ و إذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا ...﴾ {يونس ١٢}

﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ {النحل ٥٣}

﴿ و إذا مسه الخير منوعا ﴾ {المعارج ٢١}

(٢٩٥) الرازي ج ٢٩ ص ١٣٢ آية القمر ٤٨

و جاء ذكر النعمة بصيغة الماضي المسند لضمير العظمة مرتين وهي قوله تعالى

﴿ و إذا أنعمنا على الإنسان أعرض و نأى بجانبه...﴾ {الإسراء ٨٣}

﴿ و إذا أنعمنا على الإنسان أعرض و نأى بجانبه ...﴾{فصلت ٥١ }

و جاءت الإصابة مسندة للسيئة منكرة أربع مرات، وواحدة للحسنة نكرة وهي

﴿ و إن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ...﴾ {النساء ٧٨ }

﴿ و إن تصبهم سيئة يطيروا بموسى و من معه ...﴾ {الأعراف ١٣١}

﴿ و إن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفو﴾ { الشورى ٤٨}

﴿ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ { الروم ٣٦}

﴿ و إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ﴾ { النساء ٧٨ }

و جاء التخويل مسندا للنعمة منكرة مرتين كلاهما في سورة الزمر ، و لكن أحدهما مسندا لضمير الغائب و الآخر مسندا لضمير العظمة و هما :

﴿ ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل و جعل لله أندادا ...﴾ { ٨ }

﴿ ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم...﴾ { ٤٩ }

و جاء الكشف مسندا للضر مرتين كلاهما معرفة ، و الفاعل في أحدهما ضمير العظمة ، و الثاني ضمير الغائب ، و مرتين للرجز و مرة للعذاب وهما معرفتان :

﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ...﴾ { يونس ١٢}

﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ { النحل ٥٤ }

﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ { الأعراف ١٣٥}

﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ { الزخرف ٥٠}

و المتأمل لمعنى الذوق و المس يجد أن معنى الأول " اختبار الشيء من جهة تطعم، ثم يشتق منه مجازا فيقال... ذقت ما عند فلان : اختبرته... و يقال ذاق القوس إذا نظر ما مقدار إعطائها و كيف قوتها "[٢٩٦] . وجاء في معنى الثاني أنه" يدل على حس الشيء باليد"[٢٩٧]، و جاء أيضا " المس كاللمس ، لكن اللمس قد يقال لطلب الشيء وإن لم يوجد ، والمس يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس "[٢٩٨]. و لعل مما يُنتبه له أن الذوق أسند للرحمة لما يدل عليه من بلوغ الإدراك للشيء المذوق، مع قلته ، بخلاف المس المسند للضر و الشر الذي لا يفيد أكثر من الملامسة دون الوصول إلى إدراك حقيقة الشيء الممسوس ، و إن كانت تعطي معنى حصول أثرٍ ما لما يفيده المس للأشياء المحسوسة من معرفة بخواصها من الحرارة و البرودة ، و النعومة و الخشونة و ما شابه ذلك. وهذا يشير إلى غلبة الرحمة منه تعالى على العذاب .

أما دلالة الإنعام و التخويل فلا تأتي إلا لما هو خير لأن الإنعام " أصل واحد يدل على ترفه وطيب عيش وصلاح "[٢٩٩] ومعناه " إيصال الإحسان إلى الغير "[٣٠٠]

---

(٢٩٦)ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ج ٢ ص ٣٦٤

(٢٩٧) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ج ٥ ص ٢٧١

(٢٩٨) الأصبهاني : المفردات ص ٧٠٩

(٢٩٩) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ج ٥ ص ٤٤٦

(٣٠٠) الأصبهاني : المفردات ص ٧٦٠

مع إضافة معنى(التفضل ابتداء) للتخويل و التمكين من النعمة المخوّلة له. و الملحوظ في فعل الإنعام حذف المفعول ليشمل كل أنواع النعمة(٣٠١) . أما صيغة المضعف (خوّل) فإن فيها معنى التكثير و التعظيم(٣٠٢) .

وفي الإصابة قدر من التحقق أعمق مما في المس، لأنها تدل " على نزول شيء واستقراره قراره . من ذلك الصواب في القول و الفعل كأنه أمر نازل مستقر قراره... ومنه الصوب وهو نزول المطر" (٣٠٣) ، و تدور حول معنى إدراك المقصود ، سواء في السهم إذا أصاب الهدف أو المطر إذا أدرك الأرض المقصودة(٣٠٤). ومع استحقاق الإنسان لها بمعاصيه إلا أن رحمته تعالى التي سبقت غضبه تتداركه بالإصابة بشيء قليل من السيئات ، دل عليه تنكير لفظ (سيئة). أما إسناد الإصابة للحسنة بلفظ التنكير (حسنة) مع (إن) الدالة على الأمر النادر الوقوع ، فلعل ذلك – كما سبق أن ذُكر– لأن الأولى بهؤلاء المنافقين أن تكون إصابتهم بالحسنات أمرا نادرا .

و في التعبير بالكشف مع الضر و الرجز و العذاب توكيد للدلالة على الخروج من شدة ، و تأكيد لقرب معناه من معنى النجاة. و فيه إيحاء بالتنفيس والراحة بعد الكرب و التعب .

وعند التأمل في جمل أفعال الشرط و جوابه في آيات الابتلاء بالخير والشر ، نجد أن أفعال الشرط جاءت مع (إذا) و (لما) بصيغة الماضي و هذا بحكم اختصاص كل

---

(٣٠١) انظر شروح التلخيص ج ٢ ص ١٤٠

(٣٠٢) أحمد الحملاوي : شذا العرف في فن الصرف ٤٣

(٣٠٣) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ج ٣ ص ٣١٧

(٣٠٤) الأصبهاني : المفردات ص ٤

منهما، مع اختلاف دلالتهما حيث أن (إذا) لما يستقبل من الزمان ، و (لما) تقتضي في الماضي وجوبا لوجوب. و أتت بصيغة المضارع مع (إن) تارة وبصيغة الماضي تارة أخرى. أما جمل الجواب فقد تفاوتت فجاءت أحيانا جملا فعلية ، و أحيانا جملا اسمية ، يبدأ بعضها بـــ (إذا) الفجائية .

و الملحوظ في هذا الســـــياق كثرة الجمل الفعلية على الجمل الاسمية في جواب (إذا) و كثرة صيغ الماضي في الجمل الفعلية على صيغ المضارع ، في حين أن جواب (لما) جاء ثلاث مرات جملة فعلية فعلها ماضي ، و أربع مرات جملة اسمية مبدوءة بإذا الفجائية . و جاء جواب (إن) خمس مرات جملة فعلية فعلها مضارع ، و ثلاث مرات جملة اسمية .

فمما جاء جواب (إذا) في جملة فعلية فعلها ماض قوله تعالى :

﴿ و إنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ﴾ { الشورى ٤٨}

﴿ و إذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ﴾ { الروم ٣٦ }

﴿ و إذا مس الناس ضر دعوا ربهم ﴾ { الروم ٣٣ }

﴿ و إذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ { الإسراء ٦٧ }

﴿ و إذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما...﴾ { يونس ١٢}

﴿و إذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه، ثم إذا خوله منه نعمة نسي ما كان يدعو من قبل...﴾ {الزمر٨}

﴿ فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة قال إنما أوتيته على علم ...﴾ { الزمر ٤٩}

﴿ و إذا أنعمنا على الإنسان أعرض و نأى بجانبه ﴾ { الإسراء ٨٣ }

﴿ و إذا أنعمنا على الإنسان أعرض و نأى بجانبه ﴾ { فصلت ٥١ }

﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله ...﴾ { العنكبوت ٦٥ }

﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ...﴾ { الأعراف ١٣١ }

و لا يخفى ما في الفعل الماضي من دلالة التحقق بمجرد وقوعه . و قد يلمح في كونه جوابا للشرط معنى مباشرة الفعل بمجرد وقوع الشرط .

ومما جاء فيه الجواب بصيغة المضارع قوله تعالى :

﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه و نعمه فيقول ربي أكرمن ، و أما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ﴾ { الفجر ١٥ – ١٦}

﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ { النحل ٥٣}

و قد أشارت الفاء في الجمل الثلاثة إلى التعقيب والمبادرة، مع ما أفاده المضارع من تجدد أفعال الجواب منهم .

أما الجواب بصيغ الجملة الاسمية ، فنحو قوله تعالى :

﴿ إذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ { يونس ٢١ }

﴿ ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ { الروم٣٣ }

﴿ و إذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ { فصلت ٥١ }

﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ { النحل ٥٤ }

﴿ و إذا مسه الشر كان يؤوسا ﴾ { الإسراء ٨٣ }

و قد تم التعبير عن المبادرة في الجمل الاسمية بالفاء في قوله ﴿ فذو ﴾ ، و بإذا الفجائية التي تشير ضمنا إلى إتيان غير المتوقع . و في الجمل الاسمية من الثبات في ردود الأفعال ما يشير إلى أن هذه جبلة فيهم . و مثل هذه الصور جاءت في أجوبة (لما)

فمما جاء فيه جواب (لما) بصيغة الفعل الماضي نحو قوله تعالى :

﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ { يونس١٢}

﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ {الإسراء ٦٧}

﴿ و لما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ...﴾ { الأعراف ١٣٤}

و أما ما جاء جملا اسمية فنحو قوله تعالى :

﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ { الأعراف١٣٥}

﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ... ﴾ { يونس ٢٣}

﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ { العنكبوت ٦}

﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ { الزخرف ٥٠}

و الأمر الزائد فيها ما تشير إليه دلالتها من (ربط واقع بواقع) [٣٠٥] مما يشير إلى أن الأمر حقيقة مؤكدة لا تراجع فيها بخلاف دلالة (إذا) التي تشير إلى إمكان أو رجحان حصول الأمر ، ومن ثم لوحت بالتهديد للرجوع ، و لعل مما يؤيد هذا أن الآيات معها أعقبت غالبا بذكر العقوبة أو الوعيد بها و لم يقف الأمر عند التهديد مثل

(٣٠٥) انظر ص ٥ من هذا البحث

آيات القسم الثاني .

أما جواب (إن) بصيغة الفعل المضارع فنحو قوله :

﴿ و لئن أذقـناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني ...﴾ { هود ١٠ }

﴿ و لئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسـته ليقولن هذا لي ...﴾ { فصلت ٥٠ }

﴿ و إن تصبهم سيئة يطيروا بموسى و من معه ...﴾ { الأعراف ١٣١}

﴿ و إن تصبهم حسنة يقولـوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك...﴾ { النساء ٧٨}

و مما جاء بصيغة الجمل الاسمية قوله تعالى :

﴿ و لئن أذقناه منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ﴾ { هود ٩}

﴿ و إن تصبهم سـيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ { الشورى ٤٨ }

﴿ و إن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ { الروم ٣٦}

﴿ و إن مسه الشر فيئوس قنوط ﴾ { فصلت ٤٩}

و مع ما يدل عليه مجيء (إن) – غالبا مع السيئات ، و نادرا مع الرحمة لمن طغى و تكبر – من فيض الرحمة؛ فقد بينت الأجوبة فرط اليأس و القنوط من رحمة الله جحودا و نكرانا ، حيث جاءت الجمل الاسمية موضحة لتأصلهما – إلا من عصمه الله بالإيمان – بدلالة الثبات و الدوام فيها .

الخــاتمـة

تعــرض القرآن الكريم في عدة مواضع منه إلى موقف الإنسان تجاه ابتلاء الله له بالخير والشر. و قد جاء التعبير عنها عن طريق أدوات الشرط (إن) و (إذا) و حرف (لما) المقتضي وجودا لوجود .

ووجـــدت الآيـــات في هذا الموضوع تنقسم ثلاثة أقسام أحدها : يذكر حال الإنـــسان مـــع ربه في السراء والضراء، و ثانيها : يذكر حاله مع ربه حين تعقب إحدى الحـــالين الأخرى ، و ثالثها : يذكر حال الإنسان مع ربه حين يخلصه من شدة . و الذي دعا لهذا التقسيم ما لاح من اختلاف في مواقف الإنسان في هذه المواطن الثلاثة .

فغالب آيات القسم الثالث كانت تعقب بذكر العقوبة أو التهديد الصريح بها ، و غالـــب القسم الثاني كان يلوح بالتهديد و الوعيد ، و غالب آيات القسم الأول فيه لفـــت إلى آيـــات القدرة الإلهية و تصرف الله في الكون ، في محاولة إلى إثبات التوحيد الخالص و إقناعهم به.

و اختلف المفسرون حول المراد بلفظ إنسان بين القول بأنه الكافر ، أو الكافر و يدخل فيه بعض العاصين، و القول بأن المراد به الجنس و يستثنى منه المؤمنون . غالب الآيات وردت – كما ذكر كثير من المفسرين – في الكافر ، و لا يمنع أن يكون للجبلة الإنـــسانية أثـــر في هذا الجحود الذي يقابل الإنسان به ربه حال النقمة ، و هذا الفرح والبطـــر الذي يقابله به حال النعمة . و في هذا إشارة إلى أن للإيمان أثر قوي في تهذيب هـــذه الطبيعة ، و فيه الدواء لدائي الجحود و البطر . كما أن ورود الآيات في سياق الحديث عن الكفار فيه تعريض بأن المؤمن الحق لا ينبغي له أن يسلك هذا السبيل ، وإنما ينبغي أن يكون شاكرا عند النعماء ، صابرا عند البلاء .

و قد اتضح من الدراسة أن مجيء الضر بعد الرحمة لم يرد – في القسم الثاني – إلا مرة واحدة و باقي الآيات كان في مجيء الرحمة بعد الضر ، وهو مؤكد للسنة الإلهية بأن رحمة الله تسبق غضبه ، و أنه تعالى إنما يبتلي بمس الضر قليلا ليختبر إيمان عباده ثم ينعم عليهم برحمته . ومما لوحظ أيضا أن آيات القسم الأول و الثاني تراوحت بين استعمال (إن) الدالة على الشك و الاحتمال ، و (إذا) الدالة على التوقع أو الرجحان ، مع غلبة مجيء(إذا) فيها على (إن) ، في حين جاءت آيات القسم الثالث – باستثناء آية النحل – باستعمال حرف الوجوب لوجوب أو الوجود لوجود الذي يلمح فيه قدر أكبر من تحقق الوقوع خاصة بدخوله على الفعل الماضي ، مما يجعل الأخبار الواردة معه تحقق قدرا من اللزوم ليس فيه ما في (إذا) مثلا من التحقق أو الرجحان ، و بالتالي ليس فيه ما في (إن) من الشك . هذا مع أن مجيء أفعال الشرط مع (إذا) بصيغة الماضي يفيد من التأكيد ما لا يفيده مجيؤها مضارعة مع (إن) . و يزداد التوكيد بمجيء الجواب معها فعلا ماضيا و الذي عليه غالب الآيات . أما حين يأتي جملة اسمية فإنها تكون غالبا محملة بعلامات التوكيد مثل (إنّ) و لفظ (ذو) الدال على الملازمة . و تشاركها في ذلك (لما) إذ تراوح جوابها بين الجمل الفعلية ذات الفعل الماضي ، والجمل الاسمية المبدوءة بإذا الفجائية التي تفيد المبادرة بالجواب . أما(إن) فقد جاءت أفعالها متساوية العدد بين الماضي و المضارع، و غلب الماضي على إذاقة الرحمة مما يفيد تحقق الوقوع ، و المضارع على إصابة السيئات مما يفيد التقليل ، في حين جاء جوابها مع ذوق الرحمة مضارعا ليبين استمرار البطر و الكبر ، بل و مؤكدا في بعض السياقات نحو

﴿ ليقولن ﴾ و جملا اسمية مع إصابة الشر ليبين مدى ثباتهم و دوامهم على اليأس والقنوط و الكفران.

و لا يخفى أن مجيء وصف هذه المعاني بأدوات الشرط و حرف الوجوب لوجوب بما تحمله من معنى الشرط يختلف عن مجيئها في الأساليب الأخرى مثل ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ ، لأن في الشرط قدرا من التأكيد الناتج من ترتب حصول الجواب على حصول الشرط زائدا عن التأكيد الموجود في الجمل المؤكدة بـ (إن) و اللام و ما شابهها.

قائمة المصادر والمراجع

١- إبراهيم بن عمر البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

٢- د.إبـــراهيم طه أحمد الجعلي : من جماليات التكرار في القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية ، ط١ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

٣- ابـــن يعقـــوب المغـــربي : مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، ضمن شروح التلخيص ، دار السرور ، بيروت ـــ لبنان ، د. ت .

٤- أحمد الحملاوي : كتاب شذا العرف في فن الصرف ، منشورات المكتبة العلمية الجديدة ، بيروت – لبنان ، د . ت

٥- أحمـــد بن علي السبكي : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، ضمن شروح التلخيص ، دار السرور ، بيروت ـــ لبنان ، د. ت .

٦- أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي : الصاحبي في فقه اللغة العربية و مسائلها وسنن العرب في كلامهـــا ، تحقـــيق : د. عمـــر فاروق الطبَّاع ، مكتبة المعارف ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣م.

٧- أحمـــد بن محمد الشهاب الخفاجي : حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي على تفسير البيضاوي ، المكتبة الإسلامية – محمد أزدمير ديار بكر تركيا ، د.ت.

٨- إسماعيل بن كثير : تفسير القرآن العظيم ، دار الأندلس ، بيروت ، ط١ ، ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م

٩- بهاء الدين بن عقيل : المساعد على تسهيل الفوائد ، تحقيق : د. محمد كامل بركات ، دار المدني ، جدة ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م

١٠- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، دار الندوة الجديدة ، بيروت – لبنان، د.ت

١١- جـــلال الـــدين عبد الرحمن السيوطي : همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، د.ت

١٢- جمال الدين بن منظور : لسان العرب ، دار صادر بيروت ، ط١، ١٣٠٠ هـ

١٣- الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني : المفردات في غريب القرآن ، أعده للنشر : د. محمد أحمد خلف الله ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٠ م .

١٤- سعد الدين التفتازاني : مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ، ضمن شروح التلخيص ، دار السرور ، بيروت ـ لبنان ، د. ت .

١٥- د.صبَّاح عبيد دراز : الأساليب الإنشائية و أسرارها البلاغية في القرآن الكريم ، مطبعة الأمانة ، مصر ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

١٦- عبد الحق بن غالب بن عطية : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق : المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

١٧- عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

١٨- عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق : د. مازن المبارك ، محمد علي حمد الله ، مراجعة سعيد الأفغاني ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٧٩ م

١٩- علي بن عيسى الرماني : كتاب معاني الحروف ، تحقيق : د. عبد الفتاح شلبي ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٦ م .

٢٠- عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بـ / سيبويه : كتاب سيبويه ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣م.

٢١- محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ م

٢٢- محمد بن أبي بكر الزُّرعي الدمشقي : أسماء الله الحسنى ، تحقيق : يوسف علي بديوي ، أيمن عبد الرزاق الشوّا ، دار ابن كثير ، دمشق – بيروت، ط٣ ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

٢٣- محمد بن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

٢٤- محمد بن عمر الرازي : التفسير الكبير ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، د.ت.

٢٥- محمــد بــن محمــد أبو السعود : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ط٢ ، ١٤١١ هــ - ١٩٩٠ م

٢٦- محمــد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي : البحر المحيط ، دراسة وتحقيق : عادل عبد الموجود الشيخ علي معوض ، شارك في تحقيقه د. زكريا النوتي ، د. أحمد الجمل ، دار الكتب العلمية، لبنان ، ط١ ، ١٤١٣ هــ - ١٩٩٣ م

٢٧- د.محمد محمد أبو موسى : خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، مكتبة وهبة ، ط٥ ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م

٢٨- محمود الألوسي البغدادي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هــ - ١٩٨٥ م .

٢٩- محمــود بن عمر الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ- ١٩٧٧ م .

٣٠- محمود بن عمر الزمخشري: المفصل في علم العربية ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الثانية د. ت .

٣١- يوسف بن أبي بكر السكاكي : مفتاح العلوم ، ضبطه و كتب هوامشه و علق عليه : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـــ لبنان ، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـــ ـــ ١٩٨٧ م .